

الإبداع الفنى في قصص الطيب صالح

الطبعة الأولى

تأليف:

الدكتور

محمد رشدى حسن على

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م



تأليف:
الدكتور
محمد رشدي حسن علي

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى الأستاذ القصاص

الطيب صالح

رائد القصة في السودان الشقيق

وإن لم تره عيناى للآن فقد أبصره قلبي

ومع تقديري على صدقه

واعتذاري إن قسوت — فالعدل مطلوب في الناقد

د . محمد رشدي حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لما كان لى شرف الإقامة في السودان أدرس الأدب العربي بجامعات القاهرة فرع الخرطوم وأم درمان الاسلامية والخرطوم أكثر من عقدين من عمر الزمن فقد تحتم على أن ألاحظ ركب التطور الأدبى في هذا البلد الشقيق وأنظر إلى القصة فيه نظرة الفاحص المدقق لأن القصة فى جذورها القديمة الممتدة إلى المقامة العربية القديمة عند بديع الزمان الهمذانى هى مجال تخصصى الدقيق فقد وجدت الطيب صالح هو بحق فارس القصة الأول فى السودان وشهرته أمتدت عبر وادى النيل إلى عالمنا العربى وبل إلى عالم الأدب الأوربى ولا ينكر الطيب صالح فى أحاديثه المختلفة عبقرية من سبقوه في ميدان القصة العربية فهو يقول بتواضع إنه ليس فذا فى ميدان السبق القصصى العربى بل سبقه أمثال نجيب محفوظ المفكر العظيم كما يقول وتوفيق الحكيم ويحيي حقى وسهيل إدريس وكان لهم أثر كبير فى روايته «موسم الهجرة إلى الشمال» وكذلك فان للقصاص يوسف أدريس اثراً على بعض قصص الطيب صالح وقد كان لاعجابى بالطيب صالح رد فعل نقدى والنقد كما يعنى بأظهار العيوب فهو كذلك يعنى بأظهار المحاسن ومن هنا فقد وضعت قصصه فى الميزان مرتبا إياها ترتيبا زمنيا نحو الاحق

المؤلف فى تطوره الفكرى والتزامه الأدبى ثم بعد ذلك فى الخاتمة أبرزت أهم الخصائص والمزايا التى تجمعت لدى عنه فصغتها مركزة إلا أن التفصيل موجود فى ثنايا الكتاب .

وحين قمت بدراسة أعمال الطيب صالح الروائيـة ووعيت أقواله واتصلت بما كتب عنه من دراسات وجدت أن ما كتب عنه ما زال قليلا إلا أنى أشكر الكاتبين[1] على مابذلوه من جهد .

هذ ولا بد هنا أن أضيف أن عالمنا اليوم قـد أصبح وكأنه وحدة واحدة بالنسبة للتقدم الهائل ولا يعنى هذا أنه قد تجانس أدبيا أو فكريا ولكنى قصـدت أن أقول إن التأثير والتأثر المتبادلين أصبحا ساريين سريان الكهرباء بسرعة ونظام .

فلا عجب أن يكون الطيب صالح قد تأثر كثيراً وخاصة بهؤلاء الأدباء الذين كتبوا بالانجليزية التى يتقنها أتقانا تام والطيب صالح يكتب كهاو إذلم يكن فى دراسته الجامعية متخصصا فى الأدب بل كان متخصص فى العلوم

---

(١) الذين كتبوا عن الطيب صالح هم الأساتذة الدكتور شكرى عياد والدكتور على الراعى ومحى الدين صبحى ورجاء النقاش والدكتور محمد الحسن فضل المولى وعبد الله جلاب وجلال العشرى وجمال الكتانى وكيفجزلى أميس ومختار عجوبة وعلى الملك الدكتور محمد ابراهيم الشوش والدكتور / عبد الله الطيب .

ثم أكمل في لندن دراسات متصلة بالشئون الدولية وقد تمكن وهو في لندن من التعمق في اللغة الانجليزية التي أصبح الكاتبون للقصة بها من الروافد الممدة لأنهاره القصصية كما اعترف هو بذلك .

وإن الطيب صالح قد شغف القرية حبا وهذا الحب للقرية قربني إليه كثيرا وكان سببا من الأسباب التي حببتني في دراسة قصصه وإن القصاص في السودان كثيرون من أمثال معاوية محمد نور وعرفات محمد وملكة الدار ومحمد سعيد معروف وأحمد الأمين البشير وعبد الله على ابراهيم وعثمان الحورى وعلى الملك وصلاح أحمد ابراهيم وعبد المنعم ارباب وعثمان على نور وهذا القصاص الأخير اعتبره بعض[1] الباحثين أبا للقصة القصيرة السودانية كما أن موباسان أب للقصة القصيرة الفرنسية ومحمود تيمور أب للقصة القصيرة المصرية .

ومع شهرة بعض هؤلاء القصاص إلا أن الطيب صالح هو الذى نال منزلة كبيرة لأنه عرف بالفن القصصي العربي خارج العالم العربي[2]

---

(١) القصة الحديثة في السودان ص١٥٢ مختار عجوبة دار التأليف والترجمة والنشر جامعة الخرطوم .

(٢) قال بذلك نصا الأستاذ على الملك في مقدمة كتابه مختارات من الأدب السوداني دار التأليف والترجمة والنشر ـ جامعة الخرطوم والأستاذ مختار عجوبة في مقدمة كتابه (نماذج من القصة القصيرة السودانية ص١٢ دار التأليف والترجمة والنشر جامعة الخرطوم .

فأكسبه عشاقا عديدين ومن ثم استحق هـــذه الدراسة المتواضعة .
ولايغض من قدر الطيب صالح أن يرجع بعض الباحثين[1] شهرته إلى أن قصصه ترجمت فى الخارج ولأن الناس هناك يبحثون عن الأدب الإفريقى ووجدوه فى الطيب صالح . وإن من ترجموا كتبه ليسوا من الغفلة بحيث لا يقدرون قيمة العمل الفنى .

فالعمل الفنى يفرض نفسه وبالذات فى الآداب الأجنبية لأنها لا تقبل إلا الأدب الذى يقف ندا قويا .

وإن الطيب صالح حقيقة يعتبر من الرواد الأوائل فى عالم الفن القصصى فى عالمنا العربى هذا وإن كان متأخراً زمنا إلا أنه ليس متأخرا ساوكا فـكما سنرى فى ثنايا الـكتاب نجد الطيب صالح يستحق دراسات كثيرة عنه والمسأله ليست بالـكم ولـكنها بالـكيف فللآن لم نجد للطيب صالح إلا ثلاث روايات ومجموعة قصصية وحيدة ولـكن كل كتاب من كتبه هـــذه يعتبر عملاقا مع عمالقـــة الأعمـــال القصصية فى مختلف أنحاء العالم العربى .

وقد قسمت كتابى هـــذا عن الطيب صالح إلى خمسة فصول وخاتمـــة

---

(١) حديث الدكتور عبد الله الطيب لجريدة الصحافة السودانية ص ٥ عدد السبت العشرين من أكتوبر سنة ١٩٧٩ .

الفصل الأول : مجموعة دومة واد حامد

الفصل الثانى : عرس الزين

الفصل الثالث : موسم الهجرة إلى الشمال

الفصل الرابع : بندر شاه الجزء الأول ضو البيت

الفصل الخامس : بندر شاه الجزء الثانى مريود

الخـاتمـــة : وتشتمل على النتائج المهمة

هذا وقد أسعفتنى النصوص المصدرية ولكن المراجع التى أرجع إليها كانت قليلة ولكن أحمد الله على أن تمكنت من كتابة كتابى هذا بعنوان (الإبداع الفنى فى قصص الطيب صالح)

والتوفيق من الله تعالى

د . محمد رشدى حسن على
الجيزة الدقى رمضان ١٤٠٠ هـ
يوليو سنة ١٩٨٠

الفصل الأول

مجموعة دومة ود حامد

أولا : نخلة على الجدول

إن قصة « نخلة على الجدول » هي أول[1] إنتاج أدبي للقصاص الطيب صالح وقد نشرت هذة القصة سنة ١٩٥٣ .

وقد تجلت الأحداث في هيئة حوار بين صاحب النخلة الشيخ محجوب وبين التاجر حسين الذى أراد أن يدفع عشرين جنيها ثمنا لهذه النخلة — وهذا المبلغ في يوم الوقفة كان مغرياً للشيخ إذ به كان سيشترى فداء وثوبين أحدهما لزوجه والآخر لابنته وكذلك كان سيسدد منه دينا عليه . ولكن القصاص هنا يلجأ إلى أسلوب الاستدراج الممثل في إثارة الحيرة بين اختيار أمرين محببين إلى النفس أحد هذين الأمرين هو إغراء النقود وفي يوم الوقفة لشراء مايجلب السعادة له ولأسرته والأمر الثانى وهو

---

(١) « لقاء الطيب صالح في لندن » أجرى الحوار سيد فرغلى ومنشور في كتاب « الطيب صالح عبقرى الرواية العربية » ، دار العودة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٦ .

هذه النخلة التي أثمرت بعد أن زرعها منذ خمسة أو عشرين عاما وكانت تعويذة خير له فقد تزوج في السنة التي زرعها فيها كذلك قد تمكن من شراء الغنم الذي به صلح حاله وصار من كبار التجار في القرية — ولا يمكن له بعد ذلك أن يبيعها ولها في نفسه هذا المحل الأكرم .

الشيخ محجوب في حيرة شديدة هو محتاج للمال والنخلة الغالية عليه هي التي إذا باعها ستجلب له هذا المال ماذا يفعل ؟؟ — موقف أجاد القصاص صياغته بل إن النخلة ذاتها زادت في حيرة الشيخ محجوب بجريدها « أخذ يوشوش ويتمارك ويتلاطم كغريق يطلب النجاة وبدت النخلة لمحجوب في وقفتها تلك رائعة أجمل من أي شيء في الوجود[1] » .

هكذا بلغت الأزمة قمتها حين جعل القاص بطل قصته في خضم المعترك يتساءل كيف له أن يصل إلى حل ؟ — الحل جاء ولكن بعد أن بلغ البهر أوجه جاءه من ابنه حسن في هيئة مبلغ نقدي كبير وحقيبة ملابس الأسرة وكان حسن بن محجوب يعمل في مصر .

والانفراج تم في الوقت المناسب تماما فظهر إعتماد القاص على القدر في تفريج الأزمة وكما بدأ قصته هذه بقولة « يفتح الله » فكذلك ختمها .

وبين البداية والختم أحداث تحدث حول محور شخصية بطولية لها بعداها المادي والاجتماعي وهذان البعدان يولدان بعدا نفسيا ملائما لهما كل الملاءمة

---

(١) « دومة ود حامد » نخلة على الجدول ص ١٦ ، ص ١٧ ، دار العودة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٠ .

فلا نفور بين هذه الأبعاد الثلاثة فالفقر وهو بعد اجتماعي، وكذلك الشيخوخة وهي بعد مادي تبدى على محيا الشيخ محجوب قد ولدا الحيرة في الاختيار وهذه الحيرة التي كانت تفيض بها نفس البطل المملوءة بشتى المشاعر والأحاسيس كانت البعد الثالث أو البعد النفسي .

وإن هذه الشخصية بأبعادها الثلاثة شخصية مألوفة إلى القارىء يأنس إليها ولأنها شخصية مكررة يتعاطف معها كل من يشعر بدفء وجداناتها وبساطة قسماتها . وأن اختيار القاص لمثل هذه الشخصية ببساطتها وتآلف القراء معها شخصية قصصية حقا كما يقول بعض[1] نقاد الأدب الذي جعل تآلف الشخصية بالجمهور أو تآلف الجمهور بالشخصية شرطا أساسيا في حسن رسم الشخصيات القصصية .

وأثناء دوران الأحداث على لسان الحوار نجد الذكريات التي تنبعث من أعماق الشيخ محجوب تلعب دورها أيضا . فالبناء القصصي في « نخلة على الجدول » يعتمد على ثلاثة أمور الأمر الأول وهو الشخصية البطولية التي تتحاور مع غيرها من الشخصيات الثانوية ، والأمر الثاني وهو الذكريات المستمدة من الماضي وتوقفها عند حسن بن الشيخ محجوب ثم حل الأزمة على يد حسن جعل هذه الذكريات تمثل محورا هاما ترتكز عليه هذه القصة ثم نجد الأمر الثالث الذي اعتمد عليه البناء القصصي في « نخلة على الجدول » يتمثل في الأسلوب الذي يصل بالقارىء إلى الهدف في سهولة ويسر من غير عناء أو صعوبة .

---

(1) Characters make your Story
by maren Elwood p. 158
Boston 1942

ومع أن لهذه القصة هدفا آخر مضافا إلى هدف الإمتاع ألا وهو هدف التذكر والاعتبار إلا أن هذا الهدف تحقق عن طريق عامل الصدفة البحتة فلولا هدية حسن الغائب منذ أكثر من خمس سنين لما أمكن لمحجوب أن يحل أزمته ولما أمكن للقصاص ذاته أن يجد حلا آخر للعقدة — فالعقدة التى تعتمد فى حلها على المصادفة وحدها عقدة هشة تضعف من حبكة القصة. ومن ثم فإن هذا التهاوى الصدفى يعتبر النقص الوحيد الذى نأخذه على الطيب صالح فى قصته « نخلة على الجدول » .

ثانيا : حفنـــة تمـــر

قصة تعاطف بين صبى صغير هو الراوية ورجل كان عزيز قوم فى بلدة الراوية ثم أصبح فقيرا لأنه كان مزواجا فبعد أن كان يملك أكثر من مائة فـــدان أصبح لا يملك إلا القليل لأنه باع الكثير لجد الراوية وهذا الرجل المزواج اسمه مسعود ويذكره الصبى دائما بزوجاته « الثلاث وحاله المبهدل وحمارته العرجاء وسرجه المكسور وجلبابه الممزق الأبدى » . ومع ذلك يحب الصبى لمسعود حب خالص شفاف وظهر هذا الحب الخالص حين انقض أصحاب الدين على محصول نخيله وأخذوه كله ولم يبقوا على شىء منه فما كان من الصبى الصغير وقد رأى علامات الألم على وجه مسعود إلا أن ـ ذهب إلى حافة النهر ليتقيأ حفنة التمر التى أعطاها له جده من محصول مسعود كعلامة احتجاج على ماحدث لمسعود كيف وهو الزارع وهو صاحب الأرض لا يكون أيضا صاحب التمر ؟ ؟ دار هذا فى ذهن الصبى الصغير فلم يجد جوابا ـ وكان التعاطف قويا بينه وبين مسعود

إلا أن مسعودا كان يعيش في عالم النساء وعالم الدين وبعد أن أخذ جده نصيبه من محصول البلح قال لمسعود « مازلت مدينا لي بخمسين جنيها[1] ».

وقد أراد المؤلف أن يصوغ فكرته البسيطة وهي العطف على الفقراء حتى ولو كانوا في الأصل أغنياء — فلجأ إلى تبيانها على لسان صبي صغير. لم يعكر صفاء قلبه امتزاجه بعالم فيه واقع من الخداع والطمع ، وإلا لو كانت هذه الحقيقة ظهرت على لسان شخص بلغ مبلغا من الرجولة لأثار الغمزات واللمزات من حوله لسذاجته المفرطة — فالصبي الصغير يستطيع أن يقول لاتلزموا الفقراء برد الديون ولكن الرجل الكبير لايستطيع أن يقول هذا القول ومن ثم لجأ الكاتب إلى جعل هذا الموقف يعلن على لسان هذا الصبي الصغير .

ثم يقارن بين بشاشة مسعود وعبوس جده الغني .
فكأن العبوس عند الكاتب يسير الهوينى في ركاب الحرص بينما نجد البشر عنده يسير في ركاب البلهنية والترف والكرم الزائد عن الحد بل إن الشفافية قد تواكب أصحاب القلوب المفتوحة أكثر مما تواكب أصحاب القلوب المغلقة وكثيرا نجد الكاتب يميل إلى شخصية مسعود أكثر من ميله إلى شخصية جد الصبي ويبين أن الرقة لاتفارق مسعودا وحتى ولو كان مديونا فمسعود يقول للصبي وهو يشير إلى نخلة صغيرة (النخل يابنى كالآدميين يفرح[2] ويتألم)

---

(١) دومة ود حامد « حفنة تمر » ص ٢٥
(٢) قصة حفنة في مجموعة دومة ود حامد ص ٢٤

وهكذا نجد الكاتب يشفق على الإنسان المطحون حتى ولو كان هو الذى طحن نفسه ويرسمه بصورة تثير العواطف كما فعل مع مسعود الذى يقترب منه الصبى ويمسك بيده ، ويسمع شخيره الذى يشبه شخير الجمل وهو يذبح حين أخذ الدائنون عمار نخيلة .

ان مسعودا حتى ولو كان مسرفا متلافا محبا للزواج من نساء كثيرات إلا أنه أنموذج إنسانى نعطى يأتلف من أفراد مجتمعاتنا وإن رسم الشخصية المألوفة المحبوبة تجعلنا نشعر بأن كاتبنا راعى القواعد التى وضعها بعض[1] النقاد لما يجب أن تكون عليه الشخصية حتى تكون قصصية جذابة .

ثالثا : « رسالة إلى إيلين »

هذه قصة فى هيئة رسالة يبعثها صاحبنا إلى زوجته الأجنبية التى تدعى « إيلين » وهذه الرسالة بعثها من الخرطوم حيث سافر يقضى أجازة له فى بلدة وفى هذه الرسالة نرى كيف تزوج البطل من الإنجليزية وهو يصف نفسه بأنه الضائع الغريب الذى يحمل فى قلبه جيل بأسره وهو المغرور القلق المتقلب المزاج .

ثم يبين الكاتب فى عقوبة مطاقة الأشياء التى تحبب مثله فى الزواج من أجنبية أول هذه الأشياء هى التماثل الثقافى فزوجه مثلا تعرف قولة

() Chalracters make your Story
by : maren Elwook p. 156
« Characters are plots »
Chapter Xvi

شيكسبير على لسان إحدى بطلاته (كيوبيد طفل عفريت ومن عفرتته أنه أصاب قلبي بحب طامة كبيرة مثلك[1] كذلك نجد أن الكاتب يبين اهتمام هذه الزوجة بما يحبه زوجها فهي تتصيد المناسبات التي تخص زوجها ففي عيد ميلاده تقيم له حفلا لسعده .

وهكذا نجد الكاتب في رسالته القصصية هذه يوضح تلك الأمور ثم يبين كبرياء الفتيات في بلده حين يسطر في رسالته ، أنهن لا يبالين به بعد أن تزوج أجنبية فهو قد أصبح كالنخلة التي أقتلعها التيار وجرفها بعيدا أو كالتجارة الكاسدة .

وإن كتابة القصة في هيئة رسالة لشيء جديد في عالم القصة العربية وعند الطيب صالح فلم نقرأ له من قبل أو من بعد رسالة قصصية ومن الممكن القول بأن هذا الأسلوب في معالجة القصة قد أبان قدرته وهو محصور بين دفتي رسالة في بناء هيكل الفن القصصي دون أن تنقص لبنة فالموضوع يظهر حين يتصل بفكرة حب مرسل الرسالة لإيلين هذا الحب الذي لا يدعمه التكافؤ المطلوب فهو شمس قاسية الشعاع وفكر فوضوي وآمال ظمأى بينما حبيبته تتمتع بصفات أخرى تناقض صفات صاحب الرسالة وهنا تظهر العقدة فهي ضياء هادئ وفكر منظم وتفاؤل مشرق ثم تحل هذه العقدة عن طريق ذوبان الضياء في النور والنظام في الفوضى والري في الظمأ فيحدث تعادل يتكون منه في النهاية شخصية واحدة بجسدين وروح متفردة .

---

(١) رسالة إلى إيلين في مجموعة دومة ود حامد ص ٢٨

وقد أجاد المؤلف فى تصوير شعور المرأة تجاه زوجها مع أن ايلين غربية أوربية إلا أن غريزة الغيرة على الزوج تسيطر عليها فها هى تقول له : (اذهب وعد إلى سلما إذا ضحكت الك منهن فتاة فكشر فى وجهها) .

ويعالج الكاتب فى قصته هذه فكرة الصراع بين أرضه التى ولد فيها وعاش عليها وبين حاضره الذى فيه بعد عن هذه الأرض الأصيلة بل إنه يأتى بمفهوم جديد لقوة العلاقة بين الأصل والفرع وفتورها فهو يبين أن المبالغة فى الترحيب مؤشر لفتور العلاقة فأبوه حين رحب به بشدة فكأنه يقول له إن حاضرك قد أخذك منا وخاصة بعد أن تزوجت بأجنبيــــة .

فكأن هذه الأقصوصة دعوة غير مباشرة إلى الفتاة السودانية لكى تعرف ما الذى يريده الزوج وما الذى يحب حتى تتمكن من الانتصار على وصيفتها الغربية فلا تمكنها من أخذ ابن وطنها بحال من الأحوال لأن السودانى حين يتزوج من أجنبية فإنه لن يلتفت إلى بنت بلده وكذلك فإن بنت بلده تأخذها الكبرياء فلا تلتفت إليه .

رابعا دومة ود حامد (ألفت عام ١٩٦٠)

بدأ القاصى هذه القصة يصور بلدته والتصوير هو أداة الفنان وليس الوصف فالوصف أن يبين الواقع كما هو بينما التصوير هو أن يضفى الفنان من أحاسيسه ومشاعره على الواقع وهكذا كان الطيب صالح متفننا حين لم يكتف بوصف دومة ود حامد بما فيها من حشرات وتراب وغير ذلك من المنغصات ولكنه أضاف من وجدانه على هذا الواقع فبين ردود الفعل المترتبة حين صرح بأنه يشفق على هذا الانسان الذى يأتيها من الخارج وكيف أنه لا يجد علاجا ولا يجد علما ولا يجد راحة ثم بعد ذلك يقول إن أهل دومة ود حامد قد استناموا إلى هذا الواقع بعد أن تعودوا عليه ويثير الكاتب فى نفس القارىء عنصر التشويق فيصرح بأن الدومة على ما فيها من منغصات لابد وأن تراها وأن تزور فيها مكانا يشبه المتحدث هذا المكان هو جذع شجرة ضخمة ومن المفارقات التى يحكيها لنا الطيب صالح عن هذه الدومة أن واعظا جاء ليمكث شهرا ولكنه لم يتمكن من الاستمرار إلا يومين مرضى خلالهما وأرسل برقية إلى الرئاسة فى الخرطوم يقول فيها (ذباب البقر أكل رقبتى والملاريا خرقت جلدى والدسونتاريا غرست أسنانها فى أحشائى ـ أقيلوا عثرتى يرحمكم الله هؤلاء قوم لاحاجة لهم بى ولا بواعظ غيرى[1])

(١) دومة ود حامد ص ٣٦ دار العودة بيروت .

وهكذا يلون الكاتب صورته بشتى الألوان التى تعطى لما يكتبه مذاقا فنيا جذابا ويجعلنا نتساءل عن سر هذه الدومـــة التى أتى أحد المفتشين لقطعها لإقامة طلمبة مياه مكانها ، ولكن الأهالى هبوا للدفاع عن الدومة ضـــد هذا التطور الذى كان تنشده الحكومة ورجع المفتش الحكومى بخفى حنين دون أن يفعل شيئاً .

هذه القصة بها مزيج من الذاتية والغيرية فالكاتب يسكب شعوره وبه محبة للأصول التى نشأ فيها وهذه هى الذاتية ثم هو يعبر عن الغير المتمثل فى الرغبات المتطلعة إلى تطوير القرية وجعلها تسير فى ركاب غيرها من القرى التى دخلتها المشروعات الحديثة والكاتب يمزج الحقيقة بالخيال فهو كما يوا كب الواقع المصرى يرجع القهقرى بنا إلى الوراء ويروى لنا فى خيال عارم قصة هذا الولى الصالح المكنى بود حامد إذ أن هذا الرجل كان مملوكا لرجل كافر فى زمن ماض وكان هذا الكافر يمعن فى تعذيب ود حامد حتى لجأ إلى الله يستغيث فأمر بركوب سجادته بعد وضعها على الماء لتكون كسفينة وفعل ما أمر به حتى أتى إلى هذا المكان وأقام به ثم ظهرت فيهـــا البيوت والسواقى والأبقار والأغنام وأصبح أناسها لايزيدون ولا ينقصون فمن يموت يولد بدلا منه وهكذا الأبقار والأغنام ويمعن المؤلف فى تصوير سذاجة أهل الدومة حين يتساءل أحد السكان عن معنى الحكومة وهل هى سوداء أم بيضاء ؟!! ومع هذه السذاجة إلا أن دومة ود حامد أصبحت رمزا ليقظة الشعب حين تمكنت من اسقاط حكومة حاولت أن تقيم مشروعا فى القرية بالقوة فاستغل خصوم

الحكومة هذه الفرصة وجعلوا ود حامد قضية قومية حتى تمكنوا من اسقاط الحكومة لتتولى حكومة أخرى من حزب آخر زمام الحكم .

وكأن هذه القصة دعوة من الكاتب إلى أن يعالج أولو الأمر كل ما يمس شئون القرية بالحسنى ظهر هذا على لسان شيخ من شيوخها حين يقول (الأمر الذى فات على هؤلاء الناس جميعاً أن المكان يتسع لكل هذه الأشياء يتسع للدومة والضريح ومكنة الماء ومحطة الباخرة[1]) .

وهكذا لم يتركنا المؤلف نستسلم لسلبيات القرية بل إنه على لسان أحد أفرادها أتى لنا بالعلاج لهذه المشكلة التى جسمت أحداث القصة ثم هو فى عبارة بسيطة حل لنا المشكلة بعد مبالغات التزم بها الكاتب لكى يثير شوقنا ويجذبنا إلى وقائعها وقد بين لنا الطيب صالح فى حديث له إنه يشبه الكاتب المصرى ابراهيم المازنى فى الفكرة الهجائية التى استمد أساسها من « هازلت » الكاتب الانجليزى يقول الطيب صالح « المازنى من منابع تكوينه الاجنبية الأدب الانجليزى وهو معجب جدا بهازلت وفكرة دومة ود حامد طبعا قائمة على فكرة الهجاء وأدب المازنى إله

(١) دومة ود حامد ص٥٢

حد كبير فيه الهجاء بالمعنى الانجليزى إلى جانب السخرية بمعناها العربى الجاحظى[1] » .

ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا التراث العربى القديم عند الجاحظ تقد ظهر فى سخرية الطيب صالح ولا نعجب أيضا إذا وجدنا الفكرة الهجائية التى ملأت قصة دومة ود حامد حين هجا الأوضاع المقلوبة المتمثلة فى أذهان المسئولين عن أمور القرية الاجتماعية والاقتصادية والصحية .

* * *

---

(١) الطيب صالح عبقرى الرواية العربية ص١٣١ مجموعة مقالات دار العودة بيروت .

خامسا: إذا جاءت

« إذا جاءت » عنوان ليس مكتملا وكان الأحرى أن يكون « إذا جاءت السويدية الحسناء فى الميعاد سأكون محظوظا » ولكن هكذا تكون القصة عند كاتبنا الطيب الصالح من أول سطر فيها يحاول أن يجذب حواس القارىء وقد اتخذ الكاتب موقفا إزاء عمل المرأة فهو يريد أن يقول بحذر إن المرأة ليس عندها الصبر الكافى لتحمل المشاق التى يتحملها الرجل فثناء وقد اشتركت مع أمين وبهاء فى تشييد الشركة العالمية فى فنون السياحة لم تصبر إلا شهرا واحدا وضاقت ذرعا ورجعت إلى دراستها تاركة الشريكين الآخرين غارقين فى أوهامهما .

والطيب صالح هنا لا يتقيد بالبناء الفنى للقصة القصيرة فمن المفروض أن يأخذ قطاعا صغيرا لشخصية معينة ويدير الأحداث حولها ولكن الطيب صالح قد أعطى أهمية متساوية لشخصيات قصته (إذا جاءت) فلا نعرف من البطل ؟ فأمين يتساوى مع بهاء ويتساوى مع ثناء كل منهم يتجول كاتبنا معه بدون أن يغض من قدر أحد منهم .

وإن القصة القصيرة لا تسمح باتساع النظرة لتشمل قطاعات عديدة فى شخصيات مختلفة ومن ثم فإن الضوء المسلط على الشخصيات والأحداث ليس كافيا لتوضيح الأفكار التى يريد الكاتب أن يبشر بها ويدعو إليها ونجد القاص فى « إذا جاءت » يكرر لازمة معينة تتمثل فى قولته

عن السويدية الحسناء التى ينتظرها « ستضىء ظلام ليله ذاك بأسنانهـا التى تحاكى حبات اللؤلؤ » .

وحسن اختيار اللازمة يبرر تكرارهـا وتقبـل القارىء لهذا التكرار .

ولانجد فكرة الإحباط مسيطرة على ذهن الكاتب حتى ولو كان المشروع الذى دخل فيه الأبطال مشروعاً خيالياً ليست فيه بادرة ربح — المهم عند الكاتب أن يكون هناك كفاح وهذا الكفاح ليس سلبيا أبدا مادام يحمل منطوق الكفاح فهذه الشركة السياحية التى أنشأها هؤلاء الشبان الثلاثة وإن لم تنجح للآن إلا أنهم مصممون على تحقيق الهدف من إنشائها فالعناء الذى يشكو منه الأبطال عناء محبب للنفوس فهم يعملون ومازال هناك أمل فلابد أن يكون إنتاج ويسير الكاتب وراء التسلسل المنطقى فلايعكس المنطوق وسرده للحكاية يتم بترتيب فلا تسبق حادثة حادثة أخرى .

* * *

سادسا : هكذا ياسادتي

نعم يبين القاص في هذه القصة كيف تزوج — فهما أختان متشابهتان أحب الكبرى من قبل ثم تزوجت هذه الكبرى ولم تبق إلا الصغرى رآها في حفل عام ورحبت به ومن خلال تذكره للكبرى تزوج هذه الصغرى بعد يوم حافل حدث فيه شيء لم يكن في الحسبان حين هاجم البطل ماعليه أهل هذه البلدة التي حل ضيفا بها واتهم الجميع بأنهم لايحبون الخير لبعضهم البعض وأنهم يمشون عراة في الشتاء ويلبسون الملابس الثقيلة في الصيف وأنهم يخشون بعضهم البعض ولايخشون الله وأنهم أغنياء وخزائنهم ملأى بالكنوز ولكنهم ينفقونها على الأطباء وفي هذه البلدة جميلات ممشوقات القدود ولكن صدورهن كالينابيع الجافة وبعد أن انتهى ضيف الشرف من التفوه بهذه الإهانات تلقى لكمة من شاب قوي جملته يفيق على يد حانية داوت جرحه وأقالته من عثرته ثم رأى فيها صورة من المرأة التي أحبها من عامين فتقدم منها وطلب الاقتران بها ولم تكن هذه إلا أخت المرأة الأولى التي كان يحبها وهكذا تزوج البطل .

وهذه القصة تعالج أدواء مجتمع من المجتمعات العربية بهذا الأسلوب الرمزي الذي لم يعلن فيه القاص صراحة اسم هذه البلد وإن كان لايخفى على فطنة القارىء أنها بيروت . والقاص ليس واعظا ولكنه فنان يعبر عن القلق الذي ملأ صدره من جراء سلبيات يواجهها ويريد أن يبينه

فيلجأ إلى بناء السلبيات في صرح قصصي يحقق إيجابية المتعة والفائدة معا.

وإن القصة الجديدة لاتحتاج إلى عقدة حتى يكتمل جمالها وإن كان هذا القول يخالف ماصرحنا به في بعض كتبنا من أن العقدة هي مفتاح جمال القصة[1].

فالقصة الآن يكفي أنها تطبع إحساسا لدى القارىء حتى لو خلت من العقدة كما هو الحال عند جيمس جويس لدرجة أن بعض الباحثين سموا هذه القصة باللاقصة[2] لخلوها من عناصر القصة المعروفة وأهمها العقدة وفي هذه القصة قصة (هكذا ياسادتي) للطيب صالح يبين تأثره بهذا التيار الجديد فليست عناصر القصة عنده واضحة وإن كان تأثيرها في النفس تأثيرا قويا واضحا.

* * *

---

(١) أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة للدكتور محمد رشدي حسن (عنصر العقدة وحلها).

(٢) مقالة بعنوان (في القصة القصيرة) للأستاذ حلمي القاعود ص ١٩٠ مجلة القصة. السنة الأولى عدد ٤ يونيو سنة ١٩٧٥ القاهرة.

رابعا : مقدمات

وهذه المقدمات عددها خمس تعتبر مقدمات لقصص لم يتمها الكاتب انتظارا لفطنة القارىء واحتراما لذكائه .

ففى المقدمة الأولى تحت عنوان (أغنية حب) نجد فتاة تشجع شخصا ذا صوت نشاز على الغناء وعلمته أن التعبير عن الحب هو المدرج لوصول صوته للآخرين وبدأ يغنى وأصبح له جمهور يسمعه إلا من شجعته فهى لاتسمعه وهكذا يخلق لنا الكاتب بهذه المقدمة قاعدة تبنى عليها قصة لو أنها تمت على أسس درامية لكانت قصة متكاملة العناصر .

وصيفة مقدمة « أغنيـــة حب » المقدمة الثانية تحت عنوان (خطوة للأمام) وفيها يتزوج معلم سودانى من ممرضة إنجليزية ثم يولد لهما ولد يجمع أحسن الصفات من والديه ومن ثم فإن هذا يؤهله لكى يكون طبيبا فى مستقبل أيامه كما تقول أمه ـــ وهكذا يستقيم العنوان (خطوة للأمام) مع هذه المقدمة .

ثم نأتى إلى المقدمة الثالثة تحت عنوان (لك حتى الممات) وهى ترسم الخطوط لمشكلة التجانس بين الكندية وبين السودانى اللذين تقابلا

فى إنجلترا حين كانا يدرسان كبعوثين وأحب كل منهما الآخر.
وكان السودانى يرسل لهذه الكندية خطابات مستمرة من السودان
ويختمها بعبارة (لك حق الممات) . وفعلا كانت تبادله الكندية الحب
ولكنها كانت تدعوه إلى ترك السودان ليهاجر إلى كندا ولكنه رفض
ثم مات بالالتهاب السحائى فى صيف ١٩٥١ وظلت هذه الفتاة تراسله
حتى بعد أن مات بدون أن تعلم بموته .

ونأتى إلى المقدمة الرابعة تحت عنوان (الاختبار) وفى هذه المقدمة
يبدو الثمن الفادح الذى دفعه محام إنجليزى حين فتح بيته للآخرين
من مختلف الجنسيات يلهون ويعبثون وكانت النهاية أن هربت زوج المحامى
مع فتى غانى كان يتردد على المنزل مع المترددين مما جعل المحامى يعيش
فى ذهول ولا يكاد يعرف أصدقاءه المقربين .

أما المقدمة الخامسة والأخيرة فكانت تحت عنوان (سوزان وعلى)
فيها مشكلة متكررة وهى عدم التجانس فسوزان إنجليزية وعلى سودانى
وظلا يتراسلان ولكنهما فى النهاية لا يتزوجان وإن كان كل منهما
يحب الآخر . وهذه المقدمات الخمس عبارة عن خواطر تصلح كأسس
للبناء القصصى ومن ثم فقد اختار لها الكاتب عنوان المقدمات ثم جعل
لكل مقدمة عنوانا مناسبا للموضوع الذى يطرقه .

وكل هذه المقدمات تبين مشاعر الكاتب إزاء الأحداث التى مر بها

وكانت مشاعره عميقة وشاملة ومن ثم استطاع أن ينقل هذه المشاعر إلى القارىء بأسلوبه السهل المبسط .

وإن نقل المشاعر إلى القارىء تحتاج[1] من القاص إلى مهارة فنية خاصة وإلى وعى بالبناء القصصى — وهكذا كان الطيب متمكنا فى نقل الطابع الشعورى إلى وجدان القارىء .

---

(1) Literature and Criticism
by : H . Coompes
Penguin Books — London 1976
Chapter 5 « Feelings »

الفصل الثاني

عرس الزين

« عرس الزين »

عنصر التشويق فى هذه الرواية (عرس الزين) للطيب الصالح قد استحوذ على فكر القارىء وقلبه كما استحوذ على فكر المؤلف وقلبه .

من أول صفحة فى الرواية وجدنا الإرهاصات التى تركز على أن شخصية الزين شخصية تستحق الاكتشاف وتستحق المعرفة فهو رجل يجعل امرأة تترك بائعة اللبن تغشها وهى تعيش فى عالم عرسه الذى لم يخطر لها على بال ويجعل ناظر المدرسة يعفو عن تلميذ عنده يسمى الطريفى جاء متأخراً حين أخبره بمسألة عرس الزين التى لم تكن أبدا تدخل فى الحسبان .

وكذلك فإن عليا صاحب الدكان تمكن من الإفلات من دفع دين عليه لعبد الصمد الذى أصبح مدهوشا ونسى مطالبة على بالدين حين سمع بعرس الزين .

وهكذا مهد الطيب صالح لرواية عرس الزين هذا التمهيد الجذاب الذى يدل على مقدرته فى تملك عنصر التشويق لإثارة القارىء وجذبه لمتابعة روايته ثم يمضى فى موضوعه الذى يدور حول محور شخصية الزين - والزين لم يكن شخصية عادية كباقى الشخصيات فى القرية إنها شخصية يطلق عليها أهلوها لقب (صاحب الحال) فهو ذو وجه مرسوم

بطريقة معينة ليس فيه شيء من ملامح الجمال حتى فمه ليس فيه من الأسنان إلا نابان أحدهما في الفك العلوى والآخر في الفك السفلي وكذلك فإن عينيه ضيقتان غائرتان أما رقبته فممدوده وذراعاه طويلتان وكذلك ساقاه ولم تعرف قدماه ليس الاحذية أبدا ويمعن المؤلف في تصوير الزين هذا التصوير (الـكاريـكاتيرى) حتى ضحك الزين لم ينج من تصوير المؤلف له يشبه ضحكه بنهيق الحمـــار والزين لايضحك إلا إذا استلقى على قفاه رافعا رجليه فى الهواء والزين كذلك مشهور بنهمه إلى الطعام فهو لايدخل بيتنا إلا ويأكل كل مايقدم له — فهو شخص أقرب إلى أن تنفر منه الفتيات حتى الدميمة لايمكن أن تفكر فى الاقتران به — ولـكن المقدة هنا تتجلى فى أجمل فتيات القرية وهى نعمة (الصبية الحلوة الوقورة ذات العينين الجميلتين وذات الحسب والنسب) ترضى بالزواج من الزين لا لأنه ابن عمها ولـكن لأنها تحبه وتعشقه وتعطف عليه . ولعل المؤلف فى إطالة حديثه عن الزين كبطل عذره ولـكن أين عذره فى إطالته للحديث عن نعمة ؟ عذرة يبدو فى أن نعمة وإن كانت صورة منافضة لصورة للبطل إلا أنه رغم التناقض فشخصية نعمة متممة لشخصية الزين ومن ثم ظهر عذر الطيب صالح فى إطالته للحديث عن نعمه .

والإيمان التام بحركات الغيب والإيعاز الداخلى وانتظار المجهول يدفع نعمة إلى الاستسلام لحبها للزين الذى هو قسمتها المسجلة فى اللوح المحفوظ قبل أن تولد وقبل أن يجرى النيل وقبل أن يخلق الله الأرض وما عليها كتعبير المؤلف ذاته مما يدل على عمق هـــذه الأفـكار

التي لم تتمكن ثقافته الغربية ورحلاته الخارجية من طمسها أو إزالتها .

وفي عرس الزين تشعر ببيئة القرية السودانية وهذه القرية السودانية وإن أفرد المؤلف لها مميزات خاصة إلا أنك إذا نظرت إلى هذه القرية تشعر بأنك تتحدث عن مصر فكثير من الملامح الأساسية التي تعطي طعمها للقرية موجودة هنا وهناك .

وترتيب عرس الزين الزمني يأتي بعد[1] مجموعة قصص «دومة ود حامد» . وبعد « عرس الزين » نجد « موسم الهجرة إلى الشمال » ثم رواية « بندر شاه » بجزئيها .

وقد أجاد المؤلف بناء خطه القصصي في عرس الزين ففي الفصل الأول نجد الاستدراج واضحا ليتابع القارئ القصة ثم نجد فذلكة قصيرة عن معابثة الزين للفتيات .

وفي الفصل الثاني نجد تصويرا لإعجاب الزين بالحسن والدعاية

---

(١) حدث خطأ في مقالة للأستاذ جلال العشري حين وضع في مقالة له تحت عنوان (زوربا السوداني)منشورة في كتاب (الطيب صالح عبقري الرواية العربية) صفحة ١٦٥ حين قال إن عرس الزين تالية لموسم الهجرة والواقع أن موسم الهجرة هي التالية .

للفتيات حتى يتزوجن فقد بين أنه قتيل عزة بنت عمدة القرية فتزوجت عزة مساعدا طبيا ثم أذاع أنه قتيل فتاة بدوية من القوز هى حليمة فطار ذكر هذه الفتاة وتزوجت هى الأخرى من ابن القاضى .

وفى الفصل الثالث يصور الكاتب أمهات الفتيات وهن يسارعن لإرضاء الزين حتى يعلن عن بناتهن فيتدافع الخاطبون وتختار الفتاة من بين المتدافعين واحدا منهم لتتزوجه وصور الكاتب الزين بهذه الصورة قائلا (ويلهج لسان الزين بذكر الفتاة ويصيح باسمها حيثما كان فلا تلبث الآذان أن ترهف وما تلبث العيون أن تنتبه وما تلبث يد فارس من بينهم أن تمتد وتأخذ يد الفتاة وحين يقام العرس تفتش عن الزين فتجده إما مسخرا يملأ القلل والأزيار بالماء أو واقفا فى نصف الساحة عارى الصدر فى يده فأس يكسر به الحطب أو بين النساء فى المطبخ يمازحهن ويعطينه من آن لآخر قطعا من الطعام يملأ بها فمه ومايفتأ يضحك ضحكته التى تشبه نهيق الحمار وتبدأ قصة حب أخرى(٢)) .

وهكذا نجد الزين يعمل كموفق وهذا العمل حببه للنساء على هيئته الزرية ومنظره القبيح ومع أن الزين شغل بعديد من الفتيات إلا أن قلبه لم يكن إلا مع واحدة (لايتحدث الزين عنها ولايعبث معها فتاة تراقبه من بعيد بعيون حلوة غاضبة كلما رآها مقبلة يصمت ويترك عبثه ومزاحه وإذا رآها من بعد فر من بين يديها وترك لها الطريق(٢)) .

---

(١) عرس الزين دار العودة — بيروت صفحة ٣١ .

(٢) عرس الزين صفحة ٣٢ .

وهذا موقف قصصى مثير ترك فيه الكاتب قارئه فى حيرة لأنه لم يحدد اسم هذه الفتاة التى سنكتشف فى الصفحات التالية أنها نعمة ابنة عمه .

وقد دبج الكاتب هذا الموقف الجذاب بآخر الفصل الثانى لفاجئنا فى الفصل الثالث بترويج أم الزين لإشاعة أن ابنها الزين ولى من أولياء الله الصالحين والدليل على أنه من الأولياء صداقته وأخوته لرجل ينقطع للعبادة ستة أشهر يسمى « الحنين » وكذلك فإن الزين كان يعطف على كثير من الموتين الذين يعيشون فى قريته . وفى نهاية الفصل الثالث نجد نفس العبارة المثيرة التى ختم بها الكاتب الفصل الثانى وذلك ليتأكد القارئ من الحب الذى يكنه الزين للفتاة « نعمة » .

وفى الفصل الرابع يصرح باسم نعمة ثم يبين فى قصة متداخلة مع القصة الأصلية كيف أن نعمة كانت مرغوبة ولكن سعدية أمها رفضت أن تزوجها لأحد وذلك لأنها من نصيب الزين . ثم فى صفحتين يرسم لنا الكاتب لوحة رائعة لفيضان النيل لو أن رساما أمسك ريشته لما كان أن يتسامى فى الروعة الأسلوبية كالطيب صالح فهذه اللوحة وإن كانت حشوا إلا أنها أكملت زخرفة (عرس الزين) .

وفى الفصل الخامس نجد الكاتب يعود إلى نعمة وذكرها بقصة أيوب وكيف أن زوج أيوب قدمت تضحية عظيمة بحبها المؤكد لزوجها فى حالة مرضه وابتلائه وكانت نعمة تتمنى لو قدمت مثل هذه التضحية ومن ثم وقر فى صدرها هذا الحب المؤكد للزين .

وفي الفصل السادس نجد المؤلف يتحدث عن الزين بتفصيل ويبين مدى قوته المريعة بالرغم من جسمه الهزيل في قصة عراكه مع سيف الدين غريمه وكيف أنه لم ينج من بين يديه إلا حين أتى صديقه الحنين وكأنه موكل بإنقاذ سيف الدين الذى بعد أن نجا من الموت لم يترك فريضة إلا وأداها وأصبح يدين بالاحترام للزين وللحنين معاً .

وفي هذا الفصل من رواية عرس الزين يتبين لنا اعتماد الكاتب على الشخصية لاعلى الموقف في بنائه القصصى فهو يحلل الخوالج والمشاعر والأحاسيس فبالرغم من مرور شهور طويلة على ضرب سيف الدين المزين إلا أن الزين وقد امتلأ قلبه بمشاعر الألم والحسرة والتمزق والغضب لم ينس أن يقتص لنفسه ممن ظلمه فما إن رآه حتى انقض عليه انقضاض الباز على فريسته .

ومع اقتدار الكاتب على تصوير الشخصية واهتمامه بها اهتماما بالغا إلا أنه لايهمل الموقف فهناك مواقف مؤثرة يقف عندها ويبين مدى أهميتها في سياغة الرواية فموقف مثل فعل العقيدة في النفوس واحترام ذوى البصيرة يبرزه الكاتب لنا في هذا الفصل فإن ثأر الزين من سيف الدين ثم محاولة الأصدقاء تخليص سيف الدين من يد الزين وعدم قدرتهم على ذلك واليأس الكامل من قدرة سيف الدين على النجاة ويعقب هذا اليأس انفراج للموقف على يد الحنين ذلك الرجل الناسك المتبتل الذى ما إن ظهر فجأة وصاح بالزين صيحته الهادئة حتى ترك الزين فريسته وبذلك تمكن سيف الدين من النجاة وتصافى المتعاركان وسادت روح المودة والمحبة بين جميع الأطراف من جديد .

وفي الفصل السابع من رواية عرس الزين نجد قصا لشخصية سيف الدين وكيف أنه ابن أسرة ثرية وأخ أوحد لخمس أخوات وقد حاول أبوه جهده ليقوم اعوجاجه ولكنه لم يفلح وظل سيف الدين على حاله من الغواية والبعد عن القيم ومصادقة الجوارى اللائى يمشن على حافة البلدة يبعن الخمور ويبعن أجسادهن ومن ثم اضطر إلى طرده فعاش سيف الدين عيشة المتشردين وحين سمع بموت أبيه رجع وأخذ ميراثه وكاد أن يبدده لولا هذه الحادثة التى حدثت له مع الزين ونجاته من الموت ونجاته من العار .

وفى الفصل الثامن يرجع الكاتب بنا إلى المعجزة التى تمت بخبر زواج الزين من نعمة بنت عمه الحاج ابراهيم فقد انعقد مجلس كبير تحدث فيه ناظر مدرسة البلدة مع صاحب الدكان وصديق لهما وكان محور الحديث العادة التى تسير عليها بعض البلاد فى زواج الفتى من ابنة عمه وكيف أن الزين لو لم يكن له «وهل غير ذلك لكان له حق الزواج من نعمة ثم إنه ناظر مدرسة البلدة كان يطمع فى الزواج من نعمة ولكن والدها رفض بلباقة لفارق السن الكبير .

وفى هذا الفصل أيضاً نجد أن الكاتب يتحدث عن إمام القرية على لسان شخصياته حديثا لا يخلو من اللمز والهمز فالناس فى القرية يحتقرون الإمام لا لصفات رديئة خاصة به ولكن لأنه يمثل ازعاجا للناس وخاصة حين يقومون من فراشهم إلى صلاة الفجر وكذلك فإن إمام القرية يمثل

فى نظر الكاتب الموت والآخرة . وهذا مأخذ نأخذه على الكاتب لأنه أولا لم يكن واقعياً فى تصوير نظرة الناس إلى إمام قريتهم وثانياً لأنه ألزقها مخلدة لم يكن هناك أى داع خيالى أو قصصى لبسها ولمزها .

إلا أن الكاتب أيضا بين أن سبب احتقار الناس لأمام البلدة راجع إلى عدم إهتمامه بأمور عيشهم وبأنه لم يكن تاجراً أو مزارعاً بل كان يعيش كمحترف الامامة .

وقد شبه الكاتب بطل روايته الزين فى هذا الفصل بالفريق القائم بذاته فقد كان أثيراً عند الحنين الولى الصالح ولكنه كان يتجنب إمام القرية لا لكونه من فريق المتمردين العصاة ولكن لأن الإمام لم يكن ليعترف به أو بصديقه الحنين أو بكراماتهما .

وفى الفصل العاشر والأخير يحدثنا الكاتب عن رأى إمام القرية فى زواج الزين من ابنة عمه نعمة وهو لا يخلو من استهجان وإن كان الإمام قد ضجت عيناه بالشهوة حين لامس شعر سلامة الأرض وهى قد صاغت نصف دائرة من جسمها وهى ترقص .

واجتمعت القرية على بكرة أبيها فى فرح الزين وأصبح فى كل بيت فرح وشارك البدو المقيمون على حافة البلدة فى أحياء فرح الزين الذى اختفى من أعين المدعوين فضج المكان بالسكون المشوب بالقلق خوفا عليه من نزواته إلا أن صديقا من أصدقائه ألهم بأن الزين قد يكون زائراً لقبر الحنين وفعلا وجدوه هناك يبكى ويعول فأحضروه بعد أن

أكبروا فيه هذا الاخلاص والوفاء ليعيش مع ابنة عمه الزوجة الوفية نعمة .

وهكذا تنتهي رواية عرس الزين بعد أن مكن الكاتب لحوادثها في نفوس القراء بهذا البناء المدملج فبدت كعروس حسناء وإن المزج بين القلق والراحة وبين الإثارة والعادية وبين مكارم الأخلاق والصفاقة وبين الضجيج والسكون جعل هذه الرواية مجسدة للحياة في كل صورها فإذا أردت أن تشخص دنيانا التي نعيشها لن نجد تشخيصا لها أجمل مما شخصها به الطيب صالح في روايته (عرس الزين) .

وقد أبان الطيب صالح في عرس الزين عن أصالته الفكرية عن المرأة في الريف وكيف أن لها هذا الدور الايجابي البناء — فنعمة التي تزوجت الزين شخصية مرموقة ومحبوبة تقوم بدور فعال حين تختار فوالداها لم يجبراها على الزواج من أحد بل هي التي اختارت الزوج وهي التي تعنى به وتقومه وتصلح من شأنه وتعلي مكانته ولم يكن دورها أقل من دور باقي الشخصيات الأساسية في رواية عرس الزين ولعل هذا — التكريم للمرأة يصطدم مع نظرية بعض الباحثين الذين يقولون إن المرأة في الأدب العربي قديما وحديثا (إما معشوقة أو غانية أو مغنية أوتا بعة بأي وجه من الوجوه[1] .. وقد جنى الأدباء الذين

---

(١) مقالة للدكتور زكي نجيب محمود عن المرأة في مجلة الهلال عدد يوليو سنة ١٩٨٠م . ص (١٦)

تصوروا المرأة بهذا الشكل على القيم الخالدة للأدب والأدب فى مجتمعاتنا المتمسكة بالأديان السماوية يجب أن يكون ملتزما وهـــذا الالتزام لا يتنافى[1] على الاطلاق مع الحرية التى هى من طبـــع الأديب الأصيـــل .

* * *

---

(١) مع الأدب المعاصر فى المملكة العربيـة السعودية للدكتور محمد رشدى حسن (المقدمة)

الفصل الثالث

« موسم الهجرة إلى الشمال »

« موسم الهجرة إلى الشمال »

هذه الرواية تدور حوادثها حول شخصية رئيسية هي شخصية الدكتور مصطفى سعيد الأستاذ فى الاقتصاد وشخصيات ثانوية مثل شخصية محجوب وشخصية ود الريس وشخصية بنت المجذوب وشخصية حسنة بنت محمود وشخصية الراوية ذاته ونساء أوروبيات .

ومصطفى سعيد شخص يظهر غريبا فى قرية الراوية تعرف عليه لأول مرة حين زارها بعد غيبة فوجد هذا الشخص يلعب على مسرح الأحداث فسأل عنه جده فأخبره بأن مصطفى سعيد قدم على القرية منذ خمس سنوات ولكنه شخص ألوف سرعان ما تآلف مع أهل البلدة وصار كواحد منهم وتزوج بحسنة محمود وأنجب منها طفلين — تعرف الراوية بمصطفى وتآلفا وحكى له مصطفى قصة حياته العريضة السابقة يظهر منها أن مصطفى ولد بالخرطوم — وتوفى أبوه وهو صغير فتكفلت به أمه التى لم تتزوج — وكان مصطفى ذكيا سرعان ما تفوق على أقرانه وأرسل فى بعثة ليتم تعليمه فى القاهرة ومنها إلى لندن . وفى لندن قبل الحرب العالمية الأولى إلى ما بعدها تمت أحداث جسام تعيش بطولتها معه نساء أجنبيات قتل بعضهن وانتحرت الأخريات بسببه — « وحوكم مصطفى وقضى فى السجن بلندن سبع سنوات » — وقد

أعطى المؤلف لأحداث لندن ونسائها أهمية كبيرة — يظهر هذا فى معظم صفحات الرواية — واهتمامه هذا راجع إلى أن المؤلف قد واكب الحياة فى لندن بحسه وعقله وجسمه جميعاً حين كان يقوم بعمله فى الإذاعة العربية ومن ثم فإن وصفه لأحداثها إنما هو وصف الخبير .

يأتى مصطفى سعيد إلى القرية حيث ترسو مركبته ويختارها ويخفى حياته السابقة عن الجميع إلا عن الراوية الذى نال ثقته ثم فى فيضان مدمر تنتهى حياة مصطفى سعيد إما انتحارا وإما قضاء وقدرا — ولا تظهر جثته على الإطلاق — وكان قبل أن يموت قد أوصى الراوية خيرا بزوجه وولديه منها — وأعطاه مفتاح حجرته الخاصة — التى فتحها المؤلف واطلع فى أوراقه على تفاصيل حياته كلهـــا وعرف كيف أن مصطفى سعيد كان نمطا فريدا غريبا شاذا « سلاحه مدية حادة(١) فى جمجمته » .

وبعد موت مصطفى سعيد بثلاث سنوات وجدنا ود الريس الذى يبلغ من العمر سبعين سنـــة أو تزيد يطمع فى الزواج من حسنة بنت محمود والتى لا يتجاوز عمرها ثلاثين عاما — وقد وافق والدها على الزواج إلا أن حسنة لم توافق وهددت بقتل ود الريس إذا زوجوها عنوة — وفعلا حين تم هذا الزواج غير المتكافىء « تحدث المجزرة التى كان لا بد منها » — فيقتل ود الريس بيد حسنة وتقتل حسنة بيد ود الريس ويدفن الإثنان فى ظلام الليل ولا تبكى النساء على حسنة بأمر بنت مجذوب العجوز الداهية التى هى كالرجال فى قوة شخصيتها وسيطرتها

ونفاذ كلتها — وكانت بنت مجذوب قد حكت للراوية كل ماحدث لأنه كان غائبا عن مسرح الأحداث .

وبنت المجذوب حشرها المؤلف حشرا في روايته تنمي الأحداث وتضفي على المواقف ظلالا ذات ألوان قاتمة طورا وألوان فاتحة طورا آخر .

وهذه الشخصية تمتاز بالجرأة في حديثها عن أزواجها الثمانية الذين دفنوا على يديها — ولايكتفي المؤلف بكلام الأحداث عنها وإنما هو بأسلوب تقريري يكمل[1] وصفها — وهذا نمط خاطىء في الحديث عن الشخصيات إذ أن المؤلف عليه أن يجعل الأحداث هي التي تتحدث فقط — وقد ظهر هذا الخطأ أيضا حين لجأ إلى الأسلوب التقريري في وصف ود الريس — أما اللجوء إلى التصوير وهو غير الوصف فنحن لانعيب المؤلف عليه — فالتصوير هو رسم مجسم للصورة يستخدم المؤلف فيها الوانا عديدة من الظلال كما أنه يعطى من أحاسيسه ومشاعره لهذه الصورة فتكتمل حسنا وأناقة — ولقد صور المؤلف حسنة بنت محمود بقوله (شفتاها لمساوان ، أسنانها قوية بيضاء منظمة ، وجهها وسيم والعينان السوداوان الواسعتان يختلط فيهما الحزن والحياء حين سلمت عليها أحسست بيدها ناعمة دافئة في يدي . امرأة نبيلة الوقفة أجنبية الحسن ،

---

(١) المصدر ذاته : صفحة ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ١٢٢ .

امرأة أحس حين ألقاها بالحرج والخطر فأهرب منها بأسرع ما أستطيع)
ولو أن المؤلف اكتفى بتبيان طولها أو قصرها ولون شفتيها وعينيها
ووسامة وجهها لقلنا إنه وصف ولكن حين قال « إمرأة نبيلة الوقفة ..
أحس حين ألقاها بالحرج والخطر » فهو حينئذ يصور لأنه أعطى من
أحاسيسه ومن مشاعره شيئا مميزا واضحا . وقد شوه المؤلف شخصية
الدكتور مصطفى سعيد تشويها يتنافى مع الواقع إذ أن الإنسان
مهما بلغ فى جهالته « ومصطفى سعيد » لم يكن جاهلا بل إنه حاصل
على الدكتوراه فى الاقتصاد « وفى سذاجته » ومصطفى سعيد لم يكن
ساذجا بل إنه يجول العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا لا يرتكب جرما
فى حق نفسه فى حق المجتمع الذى يعيش فيه .

ولم يجد المؤلف تبريرا كافيا لأعمال مصطفى سعيد الإجرامية
فى لندن — هل أراد أن يحرر أفريقيا من الاستعمار بهذه الأعمال
الإجرامية ؟؟ يقول وزير للمعارف فى إحدى الدول الأفريقية كان قد حضر
مؤتمرا فى الخرطوم « الدكتور مصطفى سعيد » كان أستاذى عام ١٩٢٨ —
كان هو رئيسا لجمعية الكفاح لتحرير أفريقيا وكنت أنا عضوا فى اللجنة —
ياله من رجل من أعظم الأفريقيين الذين عرفتهم كانت له صلات واسعة
يا إلهى ذلك الرجل كانت النساء تتساقط عليه كالذباب كان يقول
سأحرر أفريقيا .

وفى سبيل إحياء عنصر التشويق والإثارة أحاط المؤلف هذه الشخصية
ببعد درامى « مأساوى غاية فى البعد عن الواقع .

حقا قد يكون المثقف مجرما ولكن يجب أن توقفه نزعه إنسانية موجودة في ضمير أى إنسان مهما كان هذا الإنسان جاهلا أو ساذجا ولكن المؤلف نزع هذه نزع هذه النزعة من شخصية بطلة بلا رحمة أو واقع بل وجعل موته أيضا تشوبه هذه الموجة القاسية فهو قد ابتلعه النهر سواء أكان هذا الابتلاع باختياره أم بغير اختياره .

ثم لماذا وجدنا المؤلف وقد ربط بين شخصية البطل وشخصية حسنة بنت محمود بالزواج - يحمل حسنة أوزار زوجها ؟ - إن حسنة في نهاية الأمر قد ماتت ميتة شنيعة اكتنفتها الفضائح ، ولم تكن لتستحق هـذا كله من المؤلف الذى جعل من قلمه سوط عـذاب يلهب به ظهور الأبرياء من شخصياته .

ثم إن البعدين المادى والاجتماعى لم يؤديا إلى البعد النفسى المنتظر في شخصية مصطفى سعيد — فتركيب مصطفى سعيد المادى تركيب سوى وكذلك فإن تركيبه الإجتماعى أيضا كما بينه المؤلف تركيب مريح فيه مزيج من الغنى والتربية الأخلاقيـة التى لاغبار عليها فقد ربى في البيت تربية سليمة وكذلك في المدرسة قد استفاد علما وخلقا فلم إذن اكتنفته العقد التى جعلت بعد شخصيته النفسى غير مستقيم مع المنطق أو مع التسلسل الروائى . قد يقال إنه في البناء القصصى يجب أن يكون صراع في شخصيته مصطفى سعيـد بين القديم المتوارث في السودان والحديث الذى رآه في موسم هجرته إلى الشمال — ومن ثم فقـد حدث انفصام في شخصيته ولكن إذا اعترف المؤلف بذلك فمعنى هذا أنه جعل بطله سلبيا إزاء الحياة

وهذه السلبية إذا لم يكن لها مايبررها تعتبر ضعفا نأخذه على المؤلف — لقد أراد المؤلف أن يجعل من بطل روايته « موسم الهجرة إلى الشمال » رائدا من الرواد الأوائل الذين نهلوا من ثقافة الشمال — وكان أول سوداني يتزوج من إنجليزية — وكان أول سوداني ينال درجة الدكتوراه ويدرس في جامعات إنجلترا — ولكن هل يكون الثمن فادحا إلى هذه الدرجة ؟

ثم بعد أن رجع مصطفى سعيد إلى بلده — ماذا قدم لها ؟ هل صار أستاذا بها ؟ كلا — رجع وعمل فلاحا يقوم بدفن البذور في الأرض ثم يحصد مازرع — وقد تزوج فلاحة . وكونا أسرة عادية وهكذا لم يخدم مصطفى سعيد سودانه إلا في ميدان يخدمه فيه أى فلاح يستطيع أن يمسك بالفأس والمنجل ولا يحمل الدكتوراه وكأن المؤلف ، قد عنى فعلا ماقاله على لسان من يدعى البروفسير ماكسول عن مصطفى سعيد « أنت يامستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية في أفريقيا عديمة الجدوى فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنك تخرج من الغابة لأول مرة (1) .

لماذا يكسر المؤلف شيئا ما في نفس القارئ ؟ لماذا يساهم في تحميل القارئ مالا يطيق من سلبيات شخص كان من المفروض أن يكون رائدا لا يتدنى إلى مستوى سلوكى لا يهبط إليه أراذل الناس .

---

(١) المصدر السابق ص ٩٦ ، ٩٧ ، ٤٧ ، ٤٨ .

مصطفى سعيـــد جعله المؤلف الطيب صالح رائدا في ميدان الثقافة والعلم والهجرة إلى الشمال ثم جعله لايستفيد شيئا حين آذى نفسه ولا يفيد غيره حين رجع وعمل كما يعمل البسطاء من الناس الكادحين .

فأى صراع هذا في نفسية الشرقي حين يذهب إلى أوروبا ثم تنتصر نزعة الشر على طول الخط إنه ليس صراعا إذن وإنما هو إستسلام من أول طلقة فيعيش البطل أسيرا لنزعات الشر بعرض الرواية وطولها .

أما البطل عند توفيق الحكيم في عصفور من الشرق فهو ليس سلبيا فمحسن بطل روايته حين يذهب إلى أوروبا متعلما فهو يتعلم ولا ينتقم ويعايش الأحداث ولا يصارعها وإذا أحب فحبه رقيق ساحر رومانتيكى ليس فيه عنف أو قتل أو تدمير .

أنظر إلى محسن يخاطب حبيبته سوزى الفرنسية معاتباً « إنى لست نادما على ذلك القلب الذى قدمته إليك فى احترام فألقيت به فى المدفأة إنه لك على كل حال إنه كان لك تفعلين به ما تشائين وقد فعلت به ماشئت إنما الذى يؤلمنى الآن هو حياتى بعد ذلك — لقد أسرفت فى الخيال فجعلت منك كل جنتى وعشت هذا الخيال وليس من الهين على أن أعيش من فورى فى شيء آخر[1] » .

---

(١) توفيق الحكيم : عصفور من الشرق ، الناشر مكتبة الآداب ، ص١٥٣ .

وبطل توفيق الحكيم يتراوح فى موقفه الذى يقصه وأسلوبه الذى يصوغه بين الرقة والشفافية والهجر والوصال والسكون والحركة والرضا والعتاب ولكنه أبدا لا يخرج عن خط الطبيعة الإنسانية فبطل قصته الذاهب إلى الشمال لا يخرج على الطبيعة ولا يتمرد على الواقع ولا يتعلم ليقتل ولا يحب لينتقم ولا يرحل ليدمر كما فعل مصطفى سعيد فى موسم الهجرة إلى الشمال .

وكذلك يفعل يحيى حقى فى قصته قنديل أم هاشم : فاسماعيل بطل القصة حين يهاجر إلى الشمال ليتعلم يقول عنه أستاذه الذى يعلمه طب العيون فى لندن « أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فيك يامستر اسماعيل إن بلادك فى حاجة إليك[1] » .

فأستاذ اسماعيل هنا يقرر حاجة مصر إليه أما أستاذ مصطفى سعيد فقد بين كما ذكرنا فى صفحات سابقة من هذا الكتاب أنه لا أمل للسودان فى مصطفى سعيد .

وقد بين الكاتب أن عقل مصطفى سعيد كأن فيه مدية تمزقه فلا يكون الناتج إلا شراً بشهادة أستاذه بينما عقل اسماعيل ليس ممزقا إنما هو مرتب وهادىء مستوعب ولا يخرج إلا نافعاً مفيداً .

---

(١) يحيى حقى : قنديل أم هاشم ، دار المعارف ، ص٢٦ .

ثم إن الروح تلعب دوراً مهماً عند الطيب صالح كما لعبت عند يحيى حقى وتوفيق الحكيم — فآن همند فى قصة الطيب صالح «موسم الهجرة» كانت جارية تدعى سوسن منذ أكثر من ألف عام فى خدمة مصطفى سعيد ذاته وكان يعيش أيضاً معها منذ أكثر من ألف عام فى أيام الخليفة المأمون فى بغداد يقول مصطفى سعيد لآن همند فى اكسفورد بعد إلقاء محاضرة له «وأخيراً وجدتك ياسوسن إنى أبحث عنك فى كل مكان، وخفت ألا أجدك أبدا هل تذكرين ؟ قالت بعاطفة لا تقل عن عاطفتى حدة كيف أنسى دارنا فى الكرخ فى بغداد على ضفة نهر دجلة أيام المأمون ؟ أنا أيضاً اقتفيت أثرك عبر القرون ولكننى كنت واثقة أننا سنلتقى — وهأنت ياحبيبى مصطفى لم تتغير منذ افترقنا[1] » .

فكأن الانسان فى رأى الكاتب عبارة عن مرحلة حاضرة مرت فى مراحل سابقة ثم يستمر فى مراحل لاحقة . فكما أن إسماعيل فى قصة يحيي حقى كان كاهنا مصريا قديماً فكذلك كانت آن همند عند الطيب صالح جارية تسمى سوسن عاشت فى عهد المأمون عند من يسمى مصطفى سعيد الذى أتى إلى عالمنا الحاضر بنفس الاسم وإن تغير الزمان والمكان — وهذه الموجة موجة تطور الروح ومجيئها إلى عالمنا فى

---

(١) موسم الهجرة ص ١٤٤ ـ ١٤٥

أطوار متمددة ظهرت بوضوح فى رواية الدكتور مصطفى محمود المسماة بالعنكبوت .

وهنا شىء وضحه الكاتب لنا هو أن نظرته إلى الجنس نابعة من تأثره بفرويد يقول الكاتب « وأنا أكتب رواية موسم الهجرة إلى الشمال كنت واقعا تحت تأثير فرويد فبالنسبة إليه الصراع فى الحياة يقوم بين الحب والموت . الحب هو التعبير التام عن الحرية وما عدا ذلك مثل أن يصبح الواحد مليونيرا أو رئيساً للجمهورية أو أى شىء آخر هذا كله يدخل فى باب الموت وهناك شاعران عربيان يمثلان هذا الكلام أعتبرهما من أعظم شعراء العالم الأول المتنبى والثانى أبو نواس لكن أنا ككاتب عندى عطف شديد على الناس الذين ينشدون التحرر عن طريق الحب[1] » .

فكأنه أراد أن يثبت لنا أن مصطفى سعيد كان حيا وكان حرا حين كان يحب حتى الموت فكأن السادية وهى تعذيب الشخص لنفسه مبدأ مرغوب فيه عند مصطفى سعيد الذى يجمع فى شخصه بين السادية وهو تعذيب نفسه وبين الماشوسية وهى تعذيب الغير فكم عذب مصطفى سعيد نفسه وكم عذب غيره ليبين أنه حى وأنه حر هكذا كان

---

(١) الطيب صالح عبقرى الرواية العربية «الطيب صالح فى بيروت » : ص ٢١٥ .

دور مصطفى سعيد فى أوروبا أما حين رجع إلى السودان فلم يكن ليمثل دوراً وإنما عاد إلى أصله إلى منبعه .

ثم أن المؤلف حين جعل مصطفى سعيد متفوقاً فى الجنس إنما هو رد على ماكان يصف به الرحالة الأوروبيون الأفريقى من أنه كذاب وكسلان وناكر للجميل وذو عقل صغير(1) .

وأراد المؤلف أن يكيل الصاع صاعين للحضارة الأوروبية التى سخرت كل ما تملك من وسائل لاستعباد الشعوب الأفريقية فبدلا من أن تمد هذه الدول بالخبز قتلتها بالمدافع والبنادق — ومن ثم فإن هذه النظرة إلى المجتمع الأوربى نظرة فيها مزيد من الحقد الممزوج بالكراهية .

وقد رأى بعض الباحثين(2) تشابها بين شخصية المدرس فى مسرحية « الدرس » للكاتب الرومانى « أوجين أونسكو » وشخصية مصطفى سعيد فى موسم الهجرة إلى الشمال فكلاهما قاتل — ولكن لا يعتبر هذا تشابها يدعو إلى أن نقول إن الطيب صالح قد اقتبس شخصية

---

(1) المرجع السابق مقالة « الطيب صالح روائياً وناقداً » ص ١٠٥

(2) — مقالات نقدية تأليف / عبد القدوس الخاتم — مطبعة التمدن بالخرطوم ١٩٧٧ م . مقالة (الطيب صالح بين الرمز والاقتباس) .

مصطفى سعيد من شخصية المدرس فكثير من القصص السابقة لقصة الطيب صالح موسم الهجرة بها شخصيات تقتل وتدمر فهل معنى هذا أن اللاحق قد نقل من السابق ؟!

ولقد أحسن المؤلف صنعاه حين جعل المرأة تدفع عن نفسها السلبية في التبعية للرجل فها هي حسنة بنت محمود بعد موت زوجها مصطفى سعيد ترفض أن تتزوج بمن ليس أهلا لها لفارق السن الكبير بينها وبينه وحين تم هذا الزواج غير المتكافئ أنهى المؤلف هـذا الصراع بموت حسنة وبموت غريمها وزوجها ود الريس .

والمؤلف في هذا الدفاع عن حق المرأة يكاد يسير على نفس الخط الذي سار عليه من قبل كتاب القصة السودانية فقد وجدنا مشكلة الزواج تعالج في القصص المنشورة بمجلة الفجر من أول صدورها في الخرطوم سنة ١٩٣٤ — وقد ذكر بعض[1] الباحثين ان هذه المشكلة الاجتماعية قد عبرت عنها القصة السودانية تعبيرا صادقا .

أما الأجنبيات فقد أظهرهن المؤلف جميعاً في صورة بغايا لبست لهن

---

(١) — دراسات سودانيـة مجموعة مقالات في الأدب والتاريخ ص٧٠ / دكتور عبد المجيد عابدين — مركز الثقافة المصرى في أم درمان ١٩٥٨ .

قيم أو مبادىء وإنما هن يتهالكن على اللذة حتى من تزوجت بمصطفى سعيد من هؤلاء الأجنبيات فقد خانته تحت بصره وعلمه .

وهكذا لم يبق الطيب صالح على واحــــدة من هؤلاء الأجنبيات إلا أخذ بتلابيبها وأوسعها ضربا بسياط الشر والشهوة والتهـــالك على اللذة .

والمؤلف يتهالك على الكلام الجزل في رسم الصورة المثيرة ولا يتوانى في تجسيم لحظات اللذة ولعل القارىء لو أطلع على صورة ملتقطة لمنظر هذا الغرام الحسى لما أثرت فيه تأثير هذه الصورة المرسومة بالكلام فقد التقى مصطفى سعيد بفتاة في لندن أمها أسبانية ظل يزحف عليها بجيش الكلمات المعسولة حتى نالها — يقول المؤلف على لسان مصطفى سعيد « وتريثت وأنا أمسح براحة يدى ظاهر عنقها وأقبلها في منابع الاحساس ومع كل لمسة ومع كل قبلة أحس أن كل عضلة في جسدها ترتخى وتألق وجهها ولمعت عيناها ببريق خاطف واستطالت نظراتها كأنها تنظر إلى فتراني رمزا وليس حقيقة وسمعتها تقول لى بصوت متضرع مستسلم أحبك تجاوب صوتها هتاف ضعيف في أعماق وعيي[1] » .

---

(١) موسم الهجرة إلى الشمال ص ٤٧ ، ٤٨

وإن العقدة التي تتحكم في هذه الرواية تبدو متناثرة ومتعددة إلا أننا نلحظ الجوهر في التنافر الشديد بين بيئتي السودان وأوربا وعدم قدرة الرواد الأول المتمثلين في « مصطفى سعيد » على الاحتفاظ بالنقاء الذي كانوا يحتفظون به في بلدهم . وكان من الممكن للكاتب — إذا كان من أنصار الواقعية أن يمزج عنصري الخير والشر في شخصيات روايته — ولكنه أبدا يأبى ذلك فمصطفى سعيد في أوربا لم نجد إلا نزعة الشر هي المتغلبة والمنتصرة دائما — وهذا يتنافى مع الإنسان الذي تتصارع في طياته نزعات الشر والخير — فمرة تنتصر هذه ومرة أخرى تنتصر تلك .

وقد كان مصطفى سعيد أقل شأنا من أن يرمز به المؤلف إلى السودان — وذلك لأن المؤلف لم يجعل الخيوط تجتمع في يده ليحفظ له التوازن كما هو محفوظ في المرموز له ثم إن تداعي البطل المستمر أمام الأحداث يجعله هشا ضعيفا وسلبيا وليس هكذا المرموز له . ومن ثم فقد استبعدنا أن يكون مصطفى سعيد رمزا إلا لشخصه وكيانه فحسب .

ولم أر كاتب تجرأ كما تجرأ الطيب صالح في استخدام العبارات المكشوفة التي تدل على عدم التزام بالصدق الأخلاقي فالكاتب مادام قد أمسك بالقلم فعليه أن يلتزم ولا يتنمر وعليه أن يتحرر ولكن لا يكون فوضويا . والكناية في اللغة وجدت ليكني بها الأديب — وهي لم توجد اعتباطا في اللغة — وإن العبارات المكشوفة يقدر عليها حتى أراذل الناس والأديب خاصة إذا كان قصاصا عليه أن يرفع القارئ إلى مستواه ولا يهبط هو إلى أرضه

مادام قد ارتفع بفكره وخياله وأدبه. ولا أريد أن أعدد المواضع التي انزلق فيها قلم المؤلف إلى عبارات لاتخدش الحياء فحسب ولكن تجرحه وتدميه أيضا .

وإن المؤلف كان فى غنى عن إدراجها فالصدق الأخلاقى يتساوى مع الصدق الفنى فى قلم الأديب فعليه أن يجيد التعبير وعليه أيضا أن تلتزم بالمبادئ والمعايير .

وفى نهاية الأمر نجد أن « موسم الهجرة إلى الشمال » رواية قد امتزجت فيها الواقعية مع الرمز وبذل فيها جهد محمود لاينكر وكأن هذه الراوية كانت تحقيقا لآمال بعض الباحثين الذين كانوا يرنون إلى قصاص « متأمل يستعرض أمامه أحداث الحياة فى هدوء وأناة »[1] — ويتطلعون إلى « مولد حدث أدبي له خطره بل نقطة تحول جبارة فى تاريخ القصة العربية »[2] . وقد استحق الطيب صالح بقصته « موسم الهجرة إلى الشمال » أن يكون من المتصدرين المبدعين فى الفن القصصى بعالمنا العربي المعاصر .

---

(١) دراسات سودانية « مجموعة مقالات فى الأدب والتاريخ » ص ٤٦ د . عبد المجيد عابدين .

(٢) أدب وأدباء د . محمد إبراهيم الشوش ص ٢٩ دار التأليف والترجمة والنشر جامعة الخرطوم — الطبعة الأولى ١٩٧٣ .

الفصـــل الرابع

الجزء الأول من بندر شاه (ضو البيت)

الجزء الأول من بندر شاه (ضو البيت)

وهـذه الرواية للطيب صالح رواية « بندر شاه » تقع في جزأين الجزء الأول تحت عنوان « بندر شاه ضو البيت » والجزء الثاني من بندر شاه هو (مريـود) وهذه الرواية تعد من الروايات التي يملك فيها المؤلف زمام المبادرة إلى تلقف تشوق القارئ إلى معرفة ما في الغيب والمجهول فهو من الصفحات الأولى من الرواية يحدثنا عن شيء ، حدث في قرية ود حامـــد جعل أهل هذه القرية والراوية معهم لايشعرون بأنفسهم وماموضعهم من الزمان والمـكان وهذا الشيء لاصلة له بما كان وسيكون (ظـاهرة شاذة منعزلة كأن تلد العنز عجلا أو تثمر النخلة برتقالا — وماحدث لبندر شاه وأولاده[1] هـكـذا) — ويحـكى أيضا عن هذا الشيء الغامض مستثيرا المشاعر فيقول (كانت الفوضى كأنها تنفجر من تحت أقدامنـا وكان الناس يجرون مشتتين هاهنا وهاهنا يبحثون عن شيء ولاشيء يبحثون عن المصدر وليس ثمة مصدر — الصور كلها كنثار الغبار ماتـكاد تستقر في العقل حتى تتفتت ومعهـا[2] السكون والحيـــاة) .

---

(١) بندر شاه الجزء الأول ص ١٩ .
(٢) بندر شاه ج ١ ص ٢٤ .

وهكذا يظل المؤلف يتحدث عن شيء غامض ويكرر الحديث هذه بعد صفحات قليلة من غير أن يوضح كنه هذا الشيء الغامض وذلك كله ليمعن في ترغيب القارىء في المضي قدما ليكشف ذلك المجهول العجيب الذي صوره المؤلف هذه التصويرات المهولة وإذا كان المؤلف أراد أن يمعن في الخيال فهو قادر على هذا كله كقدرته التامة على الإمعان في الواقع فروايته هـــذه تجمع بين الخيال المسرف وكأنك تقرأ قصص الجن والعفاريت في ألف ليلة وليلة وبين الواقع الصادق وكأنك تقرأ قصص رائد الواقعية[1] في القصة الحديثة اميل رولا .

وقد مهد الطيب صالح لقصته هذه بأن عرفنا بالشخصيات التي كنا قد عرفناها في روايته « عرس الزين » فالزين قد أصبح من أعيان ود حامد وسيف الدين على وشك أن يكون نائبا في البرلمان وقد صاغ مع عنوان الرواية جملة تكاد تكون خلاصة لبندر شاه في جزأيها (ضو البيت ومريود) وقال في هذه الجملة (إن الأب ضحية لأبيه وابنه) وقد فسر الطيب صالح في حديث له معنى هـــذه الخلاصة حين قال (إن الماضي والمستقبل في تآمر مستمر ضد الحاضر وإن الجد والحفيد

---

(١) أثر القامة في نشأة القصة المصرية الحديثة للدكتور محمد رشدي حسن (الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

فى تـآمر مستمر ضد الأب. ومريود امتداد لشخصيات مستمرة تسير فى خط طويل لا ينقطع[1] .

أحببت أن أشير إلى العنوان لتوضيح الأحـداث والشخصيات التى تناولها الـكاتب الطيب صالح فى بندر شاه .

وقد بين الـكاتب أن والد بندر شاه وفد إلى قرية ود حامد فى ضحى يوم كان الماضى والمستقبل فيـه قتيلين لايجدان من يوارى جسديهما أو ليبـكى عليهما[2]) .

وتتوالى فصول الجزء الأول لتتداخل فيها الحـكايات التى لاتفسير لها إلا حين نرجـع مافيها إلى تأثر الطيب صالح بألف ليلة وليلة فإن الراوى فى ضو الطيب واسمه محيميد يسير وراء صوت مجهول ويدخل إلى قلعة تشع منها الأضواء فيجد بندر شاه جالسا على عرشه وعن يمينه يجلس حفيده مريود ويأتى أولاد بندر شاه الأحد عشر ليضربهم الحفيد مريود بالسوط فـكأن الـكاتب أراد بهذه الصورة أن يرمز إلى محاصرة الماضى الممثل فى بندر شاه والمستقبل الممثل فى مريود للحاضر الممثل فى الأحد عشر رجلا فـكأن الجد هو الماضى يتعاون مع الحفيد وهو المستقبل للقضاء على الحاضر وهو الأب وهذه الفـكرة الفلسفية التى راودت الـكاتب تحاول أن تبين.

---

(١) الطيب صالح فى بيروت ص ٢٢ مقالة حوار فى كتاب (الطيب صالح عبقرى الرواية العربية) .

(٢) ضو البيت بندر شاه ص ٢٥ دار العودة بيروت .

أن الإنسان فى حاضره مطحون بين ماض قاس رهيب ومستقبل متجهم غشوم فأين المفر ؟؟

ونحن لا نقر الكاتب على فكرته هذه فالمستقبل قد يكون أحسن من الحاضر والماضى على السواء هـــذا وإن كان المستقبل فى طى الغيب إلا أنه قد يحمل فى ثناياه البشريات والخيرات وتحقيق الآمال .

وقد روى (سعيد عشا البايتات) قصة عجيبة لإخوانه حـــدثت له حقيقة لا مجازا حين جاءه ولى الله الحنين قبل أن ينام وأوصاه بالذهاب إلى قلعة حصينة ليجد هناك بندر شاه وحميده وأحد عشر عبــــدا له . كذلك أوصاه ألا يتكلم بأية كلمة فى مهمته هذه حتى يتسلم أمانة له من بندر شاه وفعلا نفذ سعيد عشا البايتات الوصية ولم يفه ببنت شفة حتى تسلم الأمانة التى هى عبارة عن أموال طائلة ولكن بعض إخوان سعيـــد لم يصدقوا حكايته هذه واعتبروها خرافة — إلا أن محيميدا صدقها لأنه مر بهذه التجربة وقد تميز الطيب صالح فى « بندر شاه » بقدرته على تطويع خياله بشكل مطلق لا حدود له فهو يطوف به شرقا وغربا وزمانا ماضيا وزمانا مستقبلا وهـــذه القدرة مستوحاه من القصص الخيالية القديمة المتمثلة فى ألف ليلة وليلة ثم إن الكاتب لا يحرم القارئ من الارتباط بحاضره حين تحدث عن وزارات الجمعية الخيرية (والأجزاخانات والوابورات) وعلى أن التعيين فى الوزارات لا يتم بالكفاءة وإنما يتم (بالأونطة) وذلك لأن هم معظم المسئولين هو الوصول إلى السلطة لا إلى الحقيقة .

ويتحدث الكاتب عن ارتباط المعجزة بالكارثة . فالمعجزة التي حدثت ارتبطت بكارثة في طريقها إلى محق بلدة ود حامد وهذه النظرة المتشائمة من الكاتب للحاضر الذي نعيش فيه ترجع في رأيي إلى ارتطام الكاتب بالنظريات الغربيـــة التي تجرى بالإنسان في تيار المادة ومن ثم فليس هناك توازن بين الروح والمادة أو بين الفكر والشعور (١) .

ويحكي لنا الكاتب أن هناك صراعا دب بين بندر شاه وحفيده مريود من جهة وبين أبنائه الأحد عشر من جهة أخرى وكان النصر في النهاية للماضي والمستقبل على الحاضر المتمثل في أبناء بنـــدر شاه ولعل حنين الحاضر إلى المـاضي يتمثل في قولة محيميد (همت على وجهي ـــ ورجعت لنقطة البدء ورجعت أدفن هنا أقسمت ما أعطي جسماني أرضا غير أرض ود حامـــد (٢) .

فمحيميد ترك حياته في الخرطوم ورجع إلى حياته الأصلية قبل الميلاد وذلك لحنينه المستمر لقريته ود حامد وليشارك الأهل فيها لإنقاذها من وهدة التأخر والتخلف .

---

(١) اقرأ في التعادلية لتوفيق الحكيم عن التوازن الذي يجب أن يكون بين الروح والمادة أو بين الفكر والشعور .

(٢) بندر شاه ص ٨٦ .

ويمضى الكاتب فى قصته بندر شاه ويبين لنا فى الربع الأخير منها كيف ظهر والد بندر شاه من النيل فجأة وهو ذو لون أبيض وعينين خضراوين وكان يصرخ ويقول « جانج » « جانج » ثم أمسك بجنبه الأيمن فتبين أنه مطعون بخنجر فظل أهل قرية ود حامد يعالجونه فى المسجد حتى تم شفاؤه واستطاع أن يتكلم فأخبروه بأنهم قوم على ما بهم من ضيق الحال لا يردون من طلبهم ولا يخيبون سؤال من سألهم كما أنهم ذوو قلوب عامرة بالايمان يصلون فروضهم ويحفظون عروضهم لا يبطرهم الكثير ولا يقلقهم القليل ثم بعد ذلك أطلقوا عليه لقب ضو البيت وكان أكثر أهل البلدة اعانة لضو البيت هو «عم محمود» الذى وهبه نصف فدان قام ضو البيت بزراعتها وصار بعد ذلك يصلى الصلوات الخمس فى المسجد وحفظ سورا من كتاب الله وصار مؤهلا للزواج من فتاة تدعى فاطمة بنت جبر الدار كان لها فضل كبير عليه حين علمته الفرائض وداوته فى مرضه — وقد صور الكاتب ليلة زواج ضو البيت من فاطمة جبر الدار تصويراً ملأه القلوب روعة يقول الطيب صالح (وازدحمت حلقة الرقص عند شجرة السيال الكبيرة وسط البلد تفجرت أصوات الفرح العظيم من تحت أرجل الراقصين ومن أكف المصفقين ومن حلوق المغنيات من الطبول والطنابير من أسقف البيوت ومن بين فرجات الأكواخ من الساحات والدروب ومرابط البهائم . الليلة كل شيء

حسب وكل شاب عاشق . وكل امرأة أنثى وكل رجل أبو زيد الهلالى — الليلة كل شىء حى فاح العبير وتم السرور وشعشع الضوء ولاذت جيوش الكدر بالفرار — كل غصن تثنى وكل نهد ارتعش وكل كفل ترجرج وكل طرف كحيل وكل خد أصيل وكل فم عسل وكل خصر نحيل وكل فعل جميل وكل الناس ضو البيت) .

وفى هذا النص ترى الكاتب يربط(1) بين الطبيعة والنفس وهذا الربط يظهر فيه التعبير عن تجربة عاشها كاتبنا .

ومات ضو البيت قبل أن ينجب ابنه عيسى (بندر شاه) بثلاثة أشهر — وكما جاء ضو البيت من الماء رجع الى الماء ومات غرقا حين حاول أن ينقذ صديقه حسب الرسول وكان بندر شاه يشبه أباه فى عينيه الخضراوين ويشبه أمه فى سواد الجلد وقد أسرف الطيب صالح فى استخدام لغة الحوار الدارج فى قصته (ضو البيت — بندر شاه) وهذا تحديد لعالمية القصة السودانية — ولو أن كل قطر عربى استخدم لغته الدارجة لتكون وعاء لأدبه لما عاش هذا الأدب إلا فى الوطن الذى

---

(1) اقرأ عن الارتباط بين الطبيعة والنفس فى كتاب الدكتور / عبد القادر القط الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر ص٢٦٤ مكتبة الشباب سنة ١٩٧٨ .

نبت منه فاللغة الفصيحة بسهولتها ويسرها ورغتها وجمالهـــا تقوم على مستوى العالم العربي كله ثم إذا ترجم الفكر والأدب منها فهذا أيسر على المترجم ومن ثم فإننا نريد من أدبائنا أن يعرفوا أن الأدب ما صيغ إلا ليقرأ وقراءته باللغة الفصيحة أكمل من قراءته باللغة الدارجة .

ومحاكاة الواقع لا تعنى بحال من الأحوال محاكاة الواقع اللغوى إذ أن الواقعية لا تكون واقعية إلا إذا عرف القارىء الواقع ذاته ولن يعرفه إلا باللغة الفصحى الميسرة للجميع سواء أكانوا عربا أم غير عرب . وقد وجدنا الكاتب هنا أيضاً يشيد بدور المرأة فهى باستمرار تؤدى واجبها ولا تمانع فى أن تضحى فى سبيل اقرار العدل والحق ففاطمة بنت جبر الداركى التى تزوجت ضو البيت كانت مثالا لهذه المرأة السودانية التى لم تبال فى سبيل تأدية رسالتها بالمغامرة لتحقيق أمن الرجل الذى جاء من المجهول وكان يكفى بإشارة منها ألا تتزوجه خاصة وأن أهلهـا لم يجبروها على الزواج ومن ثم فان إشادة الطيب صالح بحرية المرأة فى اختيار حياتها إنما هو نمط واقعى للمرأة السودانية .

والأديب فى هذه الرواية يعبر عن الواقع ولا يحاول أن يزخرف فيه أو يوشى بل كان كآلة التصوير يحـكى الواقع كما هو والواقع كما هو فى حرية المرأة السودانية هو بالضبط الواقع كما يجب أن يكون فحقيقة أن المرأة السودانية تؤدى رسالتها بفهم ووعى ومرونة فهى من هذه الناحية

تفهم بيئتها حق الفهم . فالطيب صالح لم يبالغ ولم يستخدم الخيال فى ذكره لحال المرأة وإن كان قد استخدم الخيال مع الواقع فى تصوير شخصيات الرجال ولعل فهم المؤلف للبيئة السودانية جعله يتجه هذا الاتجاه الذى يحلل فيه المرأة تحليلا واقعيا ويحلل فيه الرجل تحليلا يربط فيه بين الخيال والواقع . وندهش إذا قلنا إن تصوير المرأة الواقعى أقرب إلى قلوب القراء وأذهانهم من تصوير الرجل الخيالى الواقعى وذلك لأن المرأة فى واقعها نبع فياض من الأسرار والأنوار والجمال وينتهى الجزء الأول من بندر شاه تحت عنوان ضو البيت ليبدأ الجزء الثانى تحت عنوان مريـــود .

* * *

الفصل الخامس

« الجزء الثانى من بندر شاه »

— مريود —

الجزء الثاني من بندر شاه

— مريود —

صدر الطيب صالح هـــذا الجزء الثاني من بندر شاه (مريود) بأبيات[1] لأبي نواس ويمثل من كتاب «كليله ودمنه» وهذا المثــل يبين أن الدنيا تشبه البئر التي في قاعها تنين يرمز إلى مصير الإنسان وفي أحجار هذه البئر حيات أربع ترمز إلى العناصر الأربعة المكونة للانسان وهي النار والماء والهواء والتراب . وهناك في أعلى البئر غصنان يتدليان يتعلق بهما الإنسان وهذان الغصنان هما الأجل ويعمل في قطع هذين

(١) هذه الأبيات موجودة في ديوان أبي نواس ص ٣٨ م المطبعة العمومية بمصر ١٨٩٨ م . والبيت الأول الذي يذكره الطيب صالح لأبي نواس لم ينقل نقلا صحيحا كما هو في الديوان تقول هذه الأبيات الصحيحة ..

غــير أني قابـــل ما أتاني ∴ من ظنون مكذب بالعيان
آخــــذ نفسي بتأليف شيء ∴ واحـــد في اللفظ شتى المعاني
قائم في الوهم حتى اذا مـــا ∴ رمتــه رمت معمى المكان

النصفين فأران كبيران أحدهما أسود يمثل الليل والآخر أبيض يمثل النهار . وقد انتهى هذا المثل بالعبرة منه وهو أن يدأب الانسان على عمل الصالحات ما استطاع مع الرضا بالحال . وهذه آخر رواية حتى الآن كتبها الطيب صالح على امتداد نشاطه الروائى ونلاحظ هنا أن آراء الطيب صالح قد بدأت تأخذ شكل المبادىء التى يعتنقها الانسان ويلتزم بها .

وفى أول القصة يروى لنا الكاتب كيف أن محيميدا لم يتمكن من الزواج من حبيبته مريم التى اغتالها الموت صبية وهو يتعلم فى الخرطوم — والحقيقة التى تبرز أمام القارىء تتجلى فى قدرة الكاتب على رسم الصور البديعة حتى للمناظر التى تخلع القلوب فها هو الطيب صالح يبين لنا كيف يندفع إنسان نحو دوامة فى وسط النهر ويتعرض للغرق يقول (وأخذ صوت الدوامة الكونية يعلو حتى طغى على الأصوات كلها لا يذكر أين كان جده حينئذ انقطع الحبل الذى كان يربط ما كان بينهما أصبح وحده ازاء قدر يخصه هو ثم حملته موجة إلى مركز الفوضى كأن ألف برق برق وألف رعد رعد ثم ساد صمت ليس كالصمت أحس كأنه يجلس فوق عرش الفوضى مثل شماع باهر مدمر كأنه إله[1])

ولقد ظهرت براعة الكاتب فى استخدامه للقلم كما يستخدم الرسام

(١) مريود الجزء الثانى من بندر شاه ص ٢٢ .

ريشته فأنت ترى السورة قبل أن تقرأ فالرؤية أسبق عنده من السمع فأنت إزاء هذه الصورة وأمثالها لشعر وكأنك أمام متفنن وهب قدرة التصوير بالريشة حينا وبالقلم أحيانا .

فالموت في هذه الصورة صامت وبهر الأنفاس اللاهثة أمواج راعدة مبرقة . ويكثر الكاتب من استعمال عبارات بليغة فمثلا نراه يقول مصورا رجلا يسمى الحسن .

(كان جميل الوجه حسن الصورة متناسق الأعضاء ليس بالطويل ولا بالقصير فلونه يتوهج كلون المسك لا تستطيع أن تطيل فيه النظر لجمال صورته كان كثير السكينة وقور السمت نبيل الملامح والحركة كأنه من سلالة ملوك القدماء إذا وقف كأنما تقف معه حاشية غير مرئية وإذا جلس جلس القرفصاء ويسكن حتى كأنه يذوب فيما حوله)[1]

كانت هذه الصفات صفات الحسن (بلال) والد الطاهر وقد بين الكاتب في هذا الفصل كثيرا من الأمور المتعلقة بالمحبة وكيف أن محبة الخالق محبة الخالق وقد أنجب بلال هذا ولده الطاهر من فتاة تزوجها تسمى حواء بنت العربي ولم يكن بلال ليتزوج لولا أن حواء ذهبت إلى شيخه المسمى بنصر الله ود حبيب وشكت له من حبها لبلال وإعراض

(١) مريود ص ٤٦ ..

بلال عنها فأمر الشيخ بلالا بأن يتزوج حواء التي كانت مثالا للجمال والطهر والتضحية .

لقد أغرقنا الطيب صالح في متاهات فمن كان يظن أن محيميدا هو مريود ومن كان ـ يظن أن مريوم هي مريم ؟؟ .. من المعروف أن كلمة مريود باللهجة السودانية بمعنى المحبوب ـ ومريود عند الطيب صالح يرمز إلى المستقبل فكأن المستقبل عبارة عن أمل يرنو إليه الحاضر ولكن قد يخيب الظن في المقبل .

فقد تآمر الماضي مع المستقبل لتحطيم الحاضر وهذا أمر لا يبشر بالخير إذا فهمنا أن الحاضر له وجود بمعنى أن اللحظة التي نعيش فيها تمضي بسرعة فتكون ماضيا وإذا لم نعشها فهي تكون مستقبلا وليست بحاضر ـ فالحاضر لا وجود له .

وقد وجدنا الكاتب يمزج بين الخيال والواقع ويجمع الجزئيات الصغيرة ويضمها بعضها إلى بعض وهذه الجزئيات الصغيرة قد تكون في حد ذاتها جزئيات واقعية ولكنها لو جمعت وجسدت في شخصية قصصية عند الطيب صالح لأصبحت هذه الشخصية شخصية خيالية وخيال الطيب صالح منطلق وانطلاق الخيال عنده ليس انطلاقا للمستقبل فحسب ولكنه انطلاق إلى الماضي أيضا فكثيرا ما نجد للكاتب آراء من واقع الحال الذي يحياه السودان .

وإن الكاتب يخوض برأيه في حوادث التاريخ فنجده مثلا يتحدث عن محمد أحمد المهدى الذى ظهر فى السودان بلقب « المهدى المنتظر » فى أواخر القرن التاسع عشر ويقول الكاتب عنه رأياً (١) محايدا على لسان الشيخ نصر الله بن حبيب شيخ بلال فهذا الشيخ لم يمنع أتباعه من الانضمام إلى المهدى وكذلك هو لا يحثهم على الانضمام إليه فلما قتل المهدى وجاء بعده الخليفة التعايشى وجدنا الشيخ نصر الله يدلى برأيه صريحا واضحا فيبين أن حكام المسلمين إذا عاشوا للدنيا وبالدنيا فإن الله يسلط عليهم الأعداء وينصر هؤلاء الأعداء عليهم لأن المسلمين تخلوا عن دينهم فصاروا غثاء كغثاء السيل لا يستطيعون المقاومة ويجثم الاستعمار فوق بلادنا الاسلامية .

وينطلق الكاتب جامعا بين الأسلوبين العامى والفصيح وهو فى كل منهما يجيد ويبدع وإن كنا فى عالم عالمية الأدب العربى لا نحبذ بحال من الأحوال أن يكتب الكاتب بلغته المحلية فهذا تضييق المتسع .

والكاتب يوقظ فى النفوس الذكريات البعيدة من عالم الطفولة

---

(١) هناك آراء فى المهدى وجدت فى كتاب (نصيحة أحمد العوام) للدكتور / محمد رشدى حسن .

وذكريات الطفولة لا تضيع أبدا فى عالم الحاضر بل إن الكاتب يظل ذاكراً لها وكأنها هى التى تحدد له معالم طريق الغد .

ويعتبر الطيب صالح فى قصصه مجسدا لمعانى الحياة بما فيها من خير ومن شر وهو لا يغلب عنصراً على عنصر بل تسير الحياة عنده بخيرها وبشرها لا تتعثر ولا تتقاعس .

ونجد الكاتب فى روايته هذه يثابر ليبين لنا ملامح شخصياته وإن كان نفسه قد خبا فى هذا الجزء الثانى فلم يتكلم عن مريود بإسهاب كما تكلم عنه فى الجزء الأول من روايته .

ويخرج الكاتب فى « مريود » شخصياته عن دائرة الحياة الانسانية فهو يهيم بالغيبيات ولا يتلبث إلا قليلا على أرض الواقع ثم ينطلق بعد ذلك إلى عالم ما وراء الطبيعة ومن هنا فإن أحداث القصة تنمو فى ذاتها وهى تتطور تلقائيا من غير أن يفرض الطيب صالح شخصيته على أحداثها أو شخصياتها . وهذا الأسلوب أسلوب جيد فى معالجة الأحداث لأن الكاتب إذا أظهر نفسه تماما فى أحداث الرواية

أو شخصياتها فإنه حينئذ لا يأمن أن يكون واعظا أو خطيبا بالقصد وهذا الوعظ إذا أتى مقصودا فإنه يتعارض مع الفن الأمبر المصور[1] .

---

(١) اقرأ عن مدى تدخل كاتب القصة فى أحداث قصته وشخصياتها فى كتاب ا

Modern Criticism — A Short History by
William K. Wimstatt, FR. london
chapter 30
Fiction and Drama : The Gross Structure.

(الخاتمـــة)

من معالجتنا لأعمال الطيب صالح القصصية اتضحت لنا أمور نجمعها هنا وإن كان هـــذا الجمـع لايغنى عن التفصيل الواضح فى ثنايا الفصول السابقـــة .

فأول مايلفت النظر فى قصص الطيب صالح أن مواقفها تبرز من خلال شخصياتها فالشخصيات هى التى تخلق المواقف وليست المواقف هى التى تخلق الشخصيات .

ثم إن الكاتب يجرد المرأة السودانية من أنانية مفرطة ومن سلبية أغرق فيهما معظم الأدباء العرب قديما وحديثا المرأة العربية .

فكأن الطيب صالح فى هذه الناحية فذ فى بابه ولعل هذا التمجيد للمرأة راجع إلى فهمه الواعى بواقع الالتزام نحو المرأة التى هى أم أو بنت أو أخت أو زوجة ولا يمكن للطيب صالح وقد فهم المرأة هذا الفهم الملتزم أن يذمها بحال من الأحوال وهذا المدح للمرأة فى سودانه بوجه خاص فهو إذا التفت إلى المرأة فى الغرب يتناسى أمومتها أو أخوتها أو بنوتها أو كونها زوجة وألهب ظهرها بسياط من نار فهو لايثق فى أمانتها ولا يثق فى حبها وقد وضح تجريده للمرأة الغربية من الفضائل فى روايته « موسم الهجرة » .

وقد يميل الطيب صالح إلى الرمز في بعض قصصه وليس بشرط أن يكون الرمز رمزاً لشيء محسوس ملموس بل قـــد يكون لمعنى مجرد فهو مثلا في عرس الزين يجعل الحنين رمزا للفضيلة والتقى كذلك فإنه يجعل نعمة التي تزوجها الزين رمزا للحنان والروح القوية المستميتة في الدفاع عن حقوق الآخرين والدفاع عن حرية المرأة في اختيار زوجها .

ويلجأ الكاتب الطيب صالح كثيرا في قصصه إلى تنمية الـــحدث من الخارج وهذا إن كان مقبولا في الرواية إلا أنه في الأقصوصة غير مقبول حيث إن القاص لا يعالج إلا مسطحاً صغيرا لحدث معين من الخارج فهو يعالج جزيئا من الموضوع وهذا الجزيء إذا نماه من الخارج ولم ينم ذاتيا لم يصبح للأقصوصة موضوع أو فـــكرة أو هدف(١) .

وكما قلنا فإن المؤلف يتجه إلى الشخصية أكثر من اتجاهه إلى الموقف فـــكذلك نسجل هنا أنه لا يتجه إلى شخصية نمطيـــة متـــكررة ولـــكنه يتجه إلى شخصية فردية وليست نمطية وشخصية الدكتور مصطفى سعيد في موسم الهجرة إلى الشمال شخصية فردية وليست نمطيـــة — فمعظم الشخصيات الرئيسية في قصص الطيب صالح شخصيات فردية حتى الشخصيات الثانوية عنده لا تخلو من الفردية .

---

(١) « فن القصة القصيرة » « الدكتور رشاد رشدي » دار الطباعة الحديثة الطبعة الأولى فبراير ١٩٥٩ م .

وارتباط الكاتب بنهر النيل ارتباط وثيق فلا تكاد تخلو قصة من قصصه من وقفة عليه أو أنشودة حب تغنى له بل إن بطلين من أبطال رواياته أخذهما النيل أحدهما مصطفى سعيد فى موسم الهجرة إلى الشمال والآخر هو ضو البيت فى الجزء الأول من مريود .

وهو يبين أن الناس حول نهر النيل وإن كانوا موحدين إلا أن توحيدهم هذا لاينفى شدة احترامهم لهذا النهر فى غدواته وروحاته .
ثم نجد الطيب صالح يتناول الظواهر الطبيعية بريشته ويرسم لنا لوحات فى غاية من الجمال والرقة والشفافية كما يفعل الشعراء الرومانتيكيون فهو قد وصف الفجر وخيوطه الوضاءة والشمس وأشعتها الذهبية وصمت الطبيعة المرهف وخرير الماء وحفيف أوراق الأشجار لاتكاد تخلو قصة عنده من لوحات هذه الطبيعة الأخاذة .

ودائما يقف الكاتب مع الحضارة العربية التى بدأت تأخذ مكانها تحت الشمس وستحل محل الحضارة الغربية التى حان أوان أفولها ولعل بعض الباحثين قد لاحظ هذا حين نقد رواية موسم الهجرة إلى الشمال وبين حتمية (سقوط الحضارة الغربية صريعة العنف الذى مارسته طويلا مع الشعوب المستعبدة[1]) .

---

(١) الرؤيا المقيدة — دراسات فى التفسير الحضارى للأدب — الدكتور شكرى عياد الهيئة العامة للكتاب (البحث عن الذات فى موسم الهجرة إلى الشمال ص ١١٦ .

وقد لاحظ بعض الباحثين[1] أن الكاتب فى أعماله القصصية يذهب فى أهل القرية ويحبهم حبا جما وهو كذلك يحب نهرها وهواءها ورمالها وزرعها وبهائمها ومعتقداتها وأساطيرها وهذا الحب قد ظهر بصورة تلقائية فى مجموعة قصص دومة ود حامد وفى عرس الزين وفى موسم الهجرة إلى الشمال وفى بندر شاه بجزءيها .

ومن منطلق الحب للبيئة المحلية وجدنا الطيب صالح يكثر من استعمال الأساليب البيئية فتراه يقول « قوافل ظمأى والسراب يتوهج قدامى فى صحراء الشوق[2] — « فالقوافل وظمأى والسراب والتوهج والصحراء كلها ألفاظ نابعة من بيئة القرية السودانية التى تقع على شاطئ النيل وتحدها الصحراء من الجانب الآخر — وتحفل قصصه بمثل هذه التعبيرات التى تعتبر ميزة من مميزاته الأسلوبية .

وقد تأثر أسلوب الطيب صالح بأسلوب الجاحظ التهكمى كما هو ظاهر فى عرس الزين وبعض قصصه الأخرى الموجودة فى مجموعته (دومة ود حامد) .

---

(١) دكتور على الراعى له مقاله فى كتاب الطيب صالح عبقرى الرواية العربية تحت عنوان زغرودة طويلة للحياة) ص ١٠١ .

(٢) موسم الهجرة إلى الشمال ص ٩٥ .

ونحن نتفق مع بعض النقاد[1] حين يقول أن الطيب صالح لم يتقيد بوحدة الزمان وبوحدة المكان فنراه ينقلك من الماضى إلى الحاضر ومن المستقبل إلى الماضى وكذلك فإنك تجده فى لندن ثم فى نفس اللحظة يأتى بك إلى قريه ود حامد فى شمال السودان وهذه الانتقالات السريعة من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان تتجلى فى معظم ما كتبه الطيب صالح .

وهناك بعض قضايا المجتمع السودانى يناقشها الطيب صالح وتحفل بها أعماله القصصية فعلاوة على مناقشته لحرية المرأة فى اختيار زوجها كما حدث فى موسم الهجرة إلى الشمال وكما حدث فى مريود كذلك فإنه ناقش بعض القضايا التعليمية مثل بناء المدارس أولا ثم توحيد التعليم ثانيا وكذلك اهتمام الحكومة بالعاصمة وترك الأقاليم .

وقد أخذنا على الطيب صالح كثرة استخدامه للعبارات العامية واللهجة المحلية ونأمل أن ينتهى العذر المجسد فى القول بأن الكاتب

---

(١) جمال الكنانى فى مقالته (مريود رسم بالكلمات) فى مجلة الدوحة السنة الرابعة العدد ٣٨ ربيع الأول ١٣٩٩ هـ — فبراير ١٩٧٩ م

الواقعى عليه أن يصوغ عبارات شخصياته كما ينطقون بها فلو أخذنا بهذا المذر لما كان هناك إلا أدب محلى لايرتقى أبدا إلى نطاق القومية أو العالمية .

والروائى الطيب صالح قد ساهم بهمة فى إحياء التراث العربى القديم وهذا الإحياء لم يتم بذكره للمغنيات التى انتثرت فى قصصه انتشارا فحسب ولكن أيضا باستخدامه لكثير من الأساليب الجزلة البديعة الفخمة التى ذكرتنا بأساليب عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وابن العميد والجاحظ .

ونحن نتساءل فى هذه الخاتمة هل للطيب صالح فلسفة استخلصها من تجاربه وظهرت فى قصصه ورواياته ولعل قولته التى قال فيها « إن الحياة(١) نوع من المهرجان » تبين لنا فعلا خلاصة فهمه للحياة — فلا طعم للحياة عنده بدون زينة واختضاب وبدون عشق وغرام وبدن تفاؤل وابتسام — حتى من يرى فى الحياة قبحا — فإن هذا القبح فى الحقيقة

---

(١) الطيب صالح عبقرى الرواية العربية دارة العودة بيروت ص ١٢٣ .

ليس إلا جذوة نار تنضج عليها ألوان الجمال فلولا القبح ما عرف الجمال ولولا الظلام ما عرف النور ولولا الشر ماعرف الخير .

وهذه العبارة التى قالها الطيب صالح تبين انفعاله بالتفاؤل وهو لا ينفعل متشائماً .

وإن الانفعال إزاء الأحداث شىء طبيعى وإن كبته لما يسبب كثيرا من الآلام — وعلى ذلك وجد التعبير لتخفيف الآلام وتوضيح الأفكار ونقل المعانى — وإن الانفعال قد يكون باظهار الفرح أو باظهار الحزن وإن الفرح قد ذكر فى القرآن الكريم فى مواضع منها قوله تعالى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »

« يونس ٥٨ »

وقوله تعالى « فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »
« الروم ٥٢٤ »

وكذلك قد ذكر الحزن فى القرآن الكريم كطبيعة إنسانية فهاهو نبى الله يعقوب يذكر ابنه يوسف الذى غاب عنه مدة طويلة حين كاد له

إخوته « وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم »

« يوسف ٨٤ »

هذا وإن التعبير بالكلام الجميل عن هذا الحزن أو الفرح هو التبيان الفنى الأصيل الذى يظهره شعر الشعراء وقصص القصاصين .

والانفعال فى الإنسان يتجه إلى ما يجلب السرور إذا كان متفائلا — وأما إذا كان متشائمـا فإنه ينجذب نحو ما يجلب الألم والحزن والطيب صالح بتكوينه الأصيل ينجذب نحو المفرحات والتفاؤلات فهو دائمـا يطرد الحزن ولا يعتريه الهم لأنه يفهم أن الحياة نوع من المهرجان .

وتظهر هـذه الفلسفة الخاصة بأجلى معانيها عند الطيب صالح فى روايته « عرس الزين »

وأما فلسفته الاجتماعيه وآراؤه المتصلة بشكل المجتمع الذى يريد أن يحيا فيه فنستطيع أن نقول عنها إنها فلسفة مستمدة من الأصول الاسلامية فهو مجتمع متكافل يساعد الغنى فيه الفقير ولا يظلم القوى فيه الضعيف ولعل مجتمع القرية عند كاتبنا هو المجتمع الأنموذجى الذى

تسود فيه القيم وتتحكم فيه المبادىء . فبطل الرواية عند صاحبنا يتجه شرقا أو غربا يذهب إلى أوروبا ثم حين يعود إلى سودانه ويتجه إلى قريته يخضع للتقاليد ويحترم القيم ويعيش في بحبوحة الالتزام بما يؤمن به أهل القرية . ظهرت هذه الفلسفة الاجتماعية عند صاحبنا في مجموعة « دومة ود حامد » و « موسم الهجرة إلى الشمال »

وإن النزعة الصوفية لا يمكن أن نتجاهلها عند كاتبنا الطيب صالح فهو ككاتب أصيل يعبر عن الذات السودانية — والذات السودانية تنزع عن صوفية عميقة ذات جذور ممتدة في أعماق التاريخ — وقد ظهرت شخصيات صوفية كثيرة عنده فيما كتب من قصص كشخصية الحنين وشخصية الزين وشخصية نصر الله بن حبيب .

والتصوف أشمل من الفلسفة فالفلسفة وعاء للفكر بينما التصوف هو الفكر ذاته بمعنى أننا نعتبر إيمان الأديب بالصدق الفني والصدق الأخلاقي فكرا ثم حين يصوغ هذا الفكر صياغة فلسفية تعتبر هذه الصياغة هي الوعاء للفكر الصوفي .

والطيب صالح كما تشهد لنا قصصه يؤمن بما يؤمن به الصوفية من رموز وغيبيات التي هي مشاهد عندهم .

وإن الفكر الصوفي له في المعرفة جولات وصولات .

وهذا هو أبو سليمان الداراني المتوفي عام ٢١٥ هـ ـ يبين أن المعرفة هي الجمال كله أو الحسن كله « لو تمثلت المعرفة إنسانا لهلك كل من نظر إليها لفرط جمالها وحسنها وطيبها ولبدا كل نور ظلاما بالقياس إلى بهائها ـ ومن ثم فهم يتوقون إلى هـذه المعرفة ويبذلون النفس والنفيس للوصول إليها ـ يقول ابن الفارض . ـ

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل
فما اختاره مضنى به وله عقل
وعش خاليا فالحب راحته عنا
وأوله سقم وآخره قتل
فإن شئت أن تحيا سعيدا فمت به
شهيدا وإلا فالغرام له أهل
فمن لم يمت في حبه لم يعش به
ودون اجتناء النحل ماجنت النحل

بل إن جلال الدين الرومي يصرح بعبارة غاية في الوضوح بأن العلم هو الذي مكن الإنسان من الوصول إلى ماوصل إليه من تقدم ورقي « إن العلم خاتم سليمان فالعالم كله صورة والعلم هو الروح

وبفضل العلم لم تبق لمخلوقات البحار ولا الجبال ولا الصحارى حيلة أمام الإنسان فالصوفية يتفقون مع الفلاسفة فى تقدير ملكة العقل ولكنهم فى عالم ماوراء الطبيعة نجد أنهم يعتمدون على القلب والروح فى الوقوف على الأسرار .

وقد يتساءل البعض لم كان كثير من المتصوفين شعراء وفنانين والإجابة على هذا سهلة فالدين والفن منبعهما واحد وهو القلب — وعلى هذا نجد أن المتصوف إذا استمع إلى شعر حسن بنغم عذب يتواجد وهذا الوجد يحرك جسده حركات لاإرادية راقصة — وقد عبر عن معنى الرقص عند السماع قول أحـــد الصوفية وهو يحيى بن معاذ الرازى . —

دققنا الأرض بالرقـ
ـص على غيب معانيكا
ولا عيب على رقص
لعبد هائم فيكا
وهذا دقنا للأر
ض إذ طفنا بواديكا

وقــد استملحنا أن نأتى بهذه المذكرة القصيرة عن التقاء الفن بالتصوف حتى نبـدد الدهشـة التى قد تبـدو حين نجد فنـا وتصوفا ممتزجين .

والطيب صالح بهذه الروح الصوفيـة تنـاول واقع السودان واتصل بمشكلاته الاجتماعية والاقتصادية وجعل منهـا عقدا لقصصه وقد ترك حل هذه العقـد فى بعض منهـا للقراء وفى البعض الآخر قام هو بنفسه بالحل . ومع تناوله لهذه المشـكلات إلا أنه لم يبد كخطيب أو ناصح بل جاء التناول والحل عفوا بدون تـكلف .

وهكذا انصهرت عند الطيب صالح المفهومات الحديثة بالتراث القديم وتـكون الإبداع الفنى فى قصصه .

والطيب صالح فى نهاية الأمر قصاص ملهم ورجل أدب مبدع أهداه السودان للسودان وللعالم العربى بل لفن القصة أينما كان ووجد ؟

الدقى : رمضان سنة ١٤٠٠ هـ — يوليو سنة ١٩٨٠ م

« والله ولى التوفيق »

الدكتور محمد رشدى حسن

المصادر والمراجع

أولا : المصـــادر :

(أ) قصص الطيب صالح وهي : —

١ — مجموعة دومة ود حامد .

٢ — عرس الزين .

٣ — موسم الهجرة إلى الشمال .

٤ — بندر شاه (ضو البيت) .

٥ — بندر شاه (مريود) .

(ب) توفيق الحكيم (عصفور من الشرق)

(جـ) سهيل أدريس (الحي اللاتيني)

(د) يحي حقي (قنديل أم هاشم) .

ثانيـــا : المراجــــع :

باللغة العربية (على أساس ترتب أسماء المؤلفين)

١ ـــ جلال العشرى (زوربا السودانى مقالة فى (الطيب صالح عبقرى الرواية العربية) .

٢ ـــ جمال الكنانى مقالة (مريود مرسوم الكلمات فى مجلة الدوحة عدد ٣٨ ربيع الأول ١٣٩٩ فبراير ١٩٧٩ .

٣ ـــ حلمى القاعود مقالة فى القصة القصيرة) مجلة القصة يونيو ١٩٧٥م .

٤ ـــ دكتور رشاد رشدى (فن القصة القصيرة) .

٥ ـــ دكتور / شكرى عياد (الرؤيا المقيدة) .

٦ ـ الدكتور / زكى نجيب محمود (المرأة فى أدب) عدد مجلة الهلال يوليو ١٩٨٠م .

٧ ـــ الدكتور / عبد القادر القط (الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر .

٩ ـــ عبد القدوس الخاتم (مقالات نقدية) .

١٠ ـــ دكتور / عبد الله الطيب (جريدة الصحافة السودانية عدد السبت ٢٠/١٠/١٩٧٩ م .

١١ ـــ دكتور / عبد المجيد عابدين (دراسات سودانية) .

١٢ ـــ دكتور على الراعى (زغرودة طويلة للحياة) . (فى كتاب الطيب صالح عبقرى الرواية العربية) .

١٣ ـ على المـك (مختارات من الأدب السودانى .

١٤ ـــ دكتور / محمد إبراهيم الشوش (أدب وأدباء) .

١٥ ـــ دكتور / محمد رشدى حسن .
(أ) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة .
(ب) مع الأدب المعاصر فى المملكة العربية السعودية .
(ج) نصيحة أحمد العوام .

١٦ ـــ مختار عجـوبة .
(أ) القصة الحديثة فى السودان .
(ب) نماذج من القصة القصيرة السودانية .

ثالثاً : المراجع باللغة الإنجليزية .

(1) H . Coombes — (Literature and Criticism

(2) maren Elwood (Charactərs Makə Your Story ..

(3) William K. wimstatt Modern Criticism —

a short History

الفهرست

رقم الإيداع / ٤١٩٦

لســـنة / ١٩٨٠

مطبعة المعرفة

